الفصل الثاني
متفرقات

ملك الصحراء
حياة ابن سعود★

يستهل المؤلف كتابه عن حياة عبد العزيز بن سعود، بأن يرسم ملامح شخصيته رسماً جيداً، كما يرسم كاتب روائي ماهر شخوص رواية فذة. والفن الروائي – كما نعلم – فن عريق في العالم الغربي ولعله أثّر في رسم الشخصيات، في كتب التراجم وسير الحياة، تأثيراً كبيراً، نلمس أثره في كتابنا هذا، كما نلمسه في غيره من كتب، نسوق مثلاً عليها، سير الحياة التي كتبها أميل لودفيج، وستيفان زفايج، وغيرهما.

يصوّر الكاتب ابن سعود – ابتداء – بأنه شاب رومانسي النزعة، إلّا أن هذه الرومانسية لا تمنعه أن يتصدى للأعباء الجسام، فيستهل حياته الغضة بحلم عظيم ألا وهو استرداد عاصمة مملكة أبائه وأجداده، الرياض، وعمره لا يزيد عن العشرين. فهو يحدثنا عن خروج ابن سعود التاريخي من الكويت بصحبة قليلة العدد، ولكنها بفضل قائدها عظيمة الهمة، كبيرة الطموح. وطموحها هذا مستمد من شعور قائدها بأن له رسالة كبرى، كما يحركه احساس ديني عميق وأصيل. فالمهمة في منطلقها – كما يذهب الكاتب – مهمة دينية، في سبيل الله.

يتجول المؤلف بعد ذلك مع ابن سعود في الصحراء، ويعايشه في حياته التي قال ابن سعود – فيما بعد – ان الأيام التي عاشها متجولاً فيها، غازياً، مقاتلاً، ساهراً، نَصِباً، كانت أجمل أيام حياته وأكثرها تفجراً بمعاني الحياة والدهشة والمغامرة. ويصف في صفحات موجزة كيف أن الحملة الأولى التي قادها ابن سعود من الكويت، قد قامت بغزوات هنا، ومناورات هناك، حتى بلغت في غزوها حدود الربع الخالي في الجنوب، كل ذلك، قبل أن تعود، كرّة أخرى، لكي تزحف بليل على الرياض، فتحتل قصر أميرها، ابن عجلان، ويقتل ابن سعود، ابن عجلان، بعمل دراماتيكي، تميزه الشجاعة التي هي ضرب من المغامرة أو المراهنة على القدر!

وهنا يكون ابن سعود، من البداية، قد خطا خطوة كبرى، وحقق – على الأرجح –

★ تأليف: ديفد هوارث.

العمل الأعظم والانجاز الأكبر في حياته. حقق الأمر الذي ظل كاتبوا سيرة حياته يراوحون به – أي العمل – بين الاسطورة والحقيقة، والاسطورة فيه نابعة من طبيعة دوره هو شخصياً، كما أنها تنبع من أن ثلة صغيرة تغلب دولة وتستولي على عاصمة ومركز دولة. وطبيعة دور ابن سعود هي التي تستوقفنا هنا، وذلك لأنه أصبح حديثاً عن البطولة، تحدث بها الأمهات أبناءهن.. ويشهر حول الاستئناس بها السامرون حول مدافئهم.. والبطولة من صنع رجل واحد.. يملك خيالاً واسعاً.. كما يملك شجاعة خارقة... وقوة جسدية كبيرة. ولعل ابن سعود – نفسه – قد ادرك عظمة تلك الخطوة، والبداية الكاسحة، والخطوة الأولى هي دائماً الخطوة الحاسمة، فكان لا يحلو له إلّا أن يذكر هذه الحادثة العظيمة في حياته ويعيد في ذكرها.. أمير لا زال في ريق الشباب، يتحدى قوة ابن الرشيد، التي عجزت أمامها قوة أبيه وحلفائه في أكثر من معركة، وانتهى بابن الرشيد الأمر إلى تشريد أسرة حاكمة بكاملها لتعيش بعيداً عن وطنها وحكمها في كنف وضيافة أمير الكويت مبارك الصباح، ويتمكن هذا الأمير، ابن سعود، من أن يضربها بثلة بسيطة في عقر دارها ويتربع على سلطانها ولا يبالي بشيء! وأكثر من ذلك أنه يتمكن من أن يحافظ على موقعه الجديد بالرغم من كل التحديات.

ويريد المؤلف أن يقول لنا أن ابن سعود هو الذي أنقذ أسرته من الزوال، والدخول في سجل النسيان، ومفقودات التاريخ.. وتكملة عمل ابن سعود التاريخي هذا، أن أرسل بمناديه ينادي في شوارع الرياض أنه قد استولى على الرياض، وهو يطلب من الناس المبايعة والتأييد، فيتوافدون عليه، والعرب تحب لأميرها الحظ والمهارة!. وكلاهما قد تحققا من، ولابن سعود حتى الآن!

بعد هذه المقدمة التي هي مدخل جيد لكتابه.. وفصل جليل من فصول حياة ابن سعود، يشد إليه القارئ ويضعه في ثورة نابضة بالحياة والحيوية، لمعطيات شاب يصنع تاريخاً، ويبدأ قصة طويلة مثيرة.. بعد هذه المقدمة يتحول الكاتب في عملية اضاءة خلفية Flash Back لكي يحدثنا عن الحركة الوهابية التي يستمد منها ابن سعود كثيراً من حيويته الأيديولوجية والفكرية، ومن رصيدها الروحي يشعل وقود حماسه واندفاعه، فهي عقيدة التوحيد المطلق له سبحانه، ترفض الرفاهية وتنزع إلى التقشف. كما يتحدث عن مؤسس هذه الدعوة الذي هو علّامة متجول: الشيخ محمد بن عبد الوهاب. داعية يدعو الناس ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.. ينهاهم عن شرب الخمر والتدخين ولبس الحرير، كما ينهاهم عن تقديس الأضرحة والأشخاص والأصنام. ويعقد العلاّمة

الشيخ الراية الاسلامية لآل سعود، فيسيرون معه، ويسير معهم، ليعيدوا - بفضل (تجديد) الدعوة الاسلامية - كتابة تاريخ شبه الجزيرة لفترة طويلة من الزمن... وتزداد الأسرة السعودية قوة، كما أن دعوة ابن عبد الوهاب تزداد نفوذاً وانتشاراً..

بعد هذه الخلفية التاريخية التي تضع الحركة السعودية في منظورها التاريخي، ينطلق المؤلف ليرسم لنا الخارطة السياسية لشبة الجزيرة من داخلها وخارجها. فيحدثنا عن امبرطوريتين.. صاعدة وغاربة.. والامبرطورية الأولى هي بريطانيا، التي يسيطر عليها هم استراتيجي واحد ألا وهو حماية طريق الهند وثرواتها.. درة التاج البريطاني. والامبراطورية الثانية هي الدولة العثمانية التي لها - على ضعفها - في شبه الجزيرة حلفاء وتابعون. وأهم الحلفاء هو ابن الرشيد حاكم شمّر وعاصمته حائل.. وعدو السعوديين التقليدي.. لا ينفك عن عداوتهم، كما لا ينفك عن محالفة الأتراك.. كما أن الأتراك يسيطرون على الاحساء واليمن والحجاز. وعلى الأخيرة يعينون الشريف الحسين بن علي والياً. أما بقية المشيخات، أو الامارات العربية في الخليج، فقد كانت ترتبط مع بريطانيا، بمعاهدات.

في هذا الاطار وضمن هذه الخريطة السياسية يتحرك ابن سعود، صعوداً، ليعيد ترتيب الأشياء.. ويساهم في رسم الصورة السياسية من جديد.. بحيث يفوز بالنصيب الأكبر فيها، ويضع دولته ودولة أجداده على التخوم التي كانت لها، ويفوز من بين جميع القوى المتصارعة، بنصيب الأسد، كما يقال..

من هنا يعود المؤلف ليحدثنا عن عبد العزيز بن سعود: الشخصية، مرّة أخرى. ولعله بهذا يريد أن يفحص أبعادها وينقب في جوانبها، ليوضح لنا دور الفرد في صناعة الأحداث: دور البطل في التاريخ.

فيحدثنا أن ابن سعود، في حقيقته وجوهر سيكولوجيته، انما هو بدوي «روحاً وقلباً». والبداوة والبدوي صورة يعجب بها الغربيون والمستشرقون منهم بصورة خاصة، ويجدون فيها صفات محببة: الشجاعة والمغامرة والكرم والذكاء الفطري وفوق كل ذلك البساطة. ولكن ابن سعود بدوي غير عادي في بداوته. يأخذ أجمل ما في البدواة ويستأثر بأحسن صفاتها. وإلى ذلك صاحب قوة بدنية متميزة. يصفه فيقول:

«لديه تميز وتفرد في قوته البدنية. ذلك التميز الذي له قيمة كبرى [في تكوين الشخصية]. فأكثر البدو هم من صغار البنية. ولكن ابن سعود كان طويلاً يبلغ ستة أقدام

ويزيد عليها بثلاث بوصات. نحيف ولكنه صلب. ويستيطع أن يسبق في الجري وركوب الخيل أو اطلاق النار أي رجل آخر في الصحراء. لقد فاق بقامته العملاقة أقرانه. ولم يكن في مكنة أحد أن يتجاهله أو يتجاهل وجوده. ولم تكن وسامته هي كل رصيده. بل لقد كانت عيناه الغامقتان في لونهما قويتين. وأنفه الذي يبرز بقوة، مع شعره الأسود، وذقنه الغير كث، وشفتاه المليئتان بما توحيان، في تعارضهما مع العينين، من نزعة حسية نحو الحب، [كل هذه الملامح] جعلت منه رمزاً للرجولة العربية. ولقد كان يحس برجولته كاحدى خصائصة الأساسية. كما أنه كان يحسن استخدامها».

ويضيف الكاتب إلى ذلك قوله معلقاً على إعراض ابن سعود عن استعراض مناحي الجمال والسحر في شخصيته «ان السحر يأتي من عدم محاولة اشعار الآخرين به» ويستطرد قائلاً «ان معظم أعدائه كانوا من بين أولئك الذين لم يتح لهم قط مقابلته» وهو بهذا يريد القول أنهم لو قابلوه لجردهم بسرح شخصيته الطبيعية من عداوتهم. واستل من نفوسهم أحقادها، فباتوا أصدقاء. وهو بهذا يؤكد، ما يذهب إليه العالم النفسي والاجتماعي ماكس وبر في نظريته الكاريسما «الجاذبية الملهمة»، والتي يصفها بأنها لا تعلل، وان تأثيرها نفاذ يُعدي ويجذب. وهي أقرب إلى الموهبة الربانية لبعض الأشخاص من ذوي القدرات القيادية الفذة. التي بها يؤثرون تأثيراً خاصاً أخاذاً على الآخرين تأثيراً كأنه السحر!

وابن سعود، إلى ذلك - كما تصفه ريشة الكاتب - غضوب في بعض الأحيان، وإذا غضب فغضبه مخيف! كما أنه يفتر حب ابن سعود للزواج من النساء، بأنه كان وهو الذي يفيض رجولة وفحولة، كان بحاجة للمرأة كجزء من تكوينه الذي يضج بالحياة والحماس للعيش. وإن الاكثار من الزواج كان تعميقاً لمعاني الرجولة في ذاته وأمراً يساعده في السيطرة على أقرانه وخصومه من الرجال ممن يظل يقارع ويصارع طوال حياته.

والمؤلف بهذا ينظر نظرة كلية للوجود الانساني. ويتتبع التكوين السيكولوجي للفرد ومحافظته على توازنه الداخلي والكياني من أجل أن يحقق أبعاد حياته. ويصل إلى غاياته الوجودية، والحكاية جميعها تبدأ بالذات الانسانية التي تصنع - عبر المعاناة - مصيرها وقدرها.. بما يترسخ فيها من طاقات وامكانات.

وقبل أن ينتهي الكاتب من رسم أبعاد الشخصية - التي تستأثر بجزء غير قليل من

الكتاب – وما فيها من مزايا وما يكتنفها من خصائص ونتوءات. فإنه يعود ليسلط عليها الأضواء من زوايا مختلفة، ومن مصادرها التي استمد فيها مادته ومعطياته عنها. فهو يستشهد بآراء الشخصيات الانجليزية التي كتب لها أن تقابل ابن سعود في مراحل مختلفة من حياته.. والتي تكاد تجمع، جميعها، على عظمة هذه الشخصية عظمة ذاتية، وعبقرية خاصة، حتى أنها لو لم تتح لها الشهرة والانتشار لكفاها ما تتمتع به من مواهب وكنوز! ولكن كل ميسر لما خلق له. أو أن الأمر كما يقول القائل: لا بدّ لصاحب الخصوصية أن يظهر!

فبرسي كوكس المعتمد البريطاني في بوشهر، والذي سيكون له دور كبير في تاريخ العراق الحديث، كان ممن قابلوا ابن سعود، وتأثروا به، ووجد نفسه معه، يتعامل مع أمير قائد جدير بالسماع والاحترام.

ورسول برسي كوكس إلى ابن سعود، الكولونيل شكسبير، أُتيح له أن يعيش معه فترة من الوقت، ويراه يمارس الحياة والحكم عن كثب، وهو الذي كتب لبرسي كوكس عن ابن سعود يقول:

«ان ابن سعود يعطي الانطباع بأنه موهوب بطبيعة خاصة قوامها الاستقامة والصراحة والكرم».

وهذه الصفات لا يقدرها غير العرب فقط وانما قدرها العرب، وبحثوا عن مناقبها في قادتهم، وقدروهم على أساسها، من مثل معاوية بن أبي سفيان وهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم. وكتب التراث مليئة بالأمثلة الجليلة عنهم.

غاية الأمر أن شكسبير، ظل متحمساً لابن سعود، معجباً به إلى النهاية. وقد قتل في احدى زياراته لابن سعود، بينما كان الأخير في معركة مع ابن الرشيد.

وتتحدث المستشرقة، وعالمة الآثار، والسياسية البريطانية جرترود بيل، والتي تعتبر من المراجع المعدودة والمعتمدة في شؤون الشرق الوسط، بين المراجع البريطانية، تتحدث عن ابن سعود فتقول قولاً وداعياً عميق النظرة:

«ان لدى ابن سعود مميزات العربي الطيب الأصيل، العريق الأرومة (تشهد ذلك) في الهيئة البارزة الملامح بقوة. والأنف الأشم، والشفتين القويتين، (كما تشهده) في الذقن الطويل الضيق، الذي تكسوه لحية.. أما يداه فجميلتان، ،اصابعهما رقيقة. وهذه

خصائص تكاد تكون عامة، لدى أولئك الذين ينحدرون من أصل عربي بين القبائل»

وتصفه مرة أخرى فتقول: «انه تزينه ابتسامة عذبة».

كما أن المؤلف يستشهد بأراء جون فيلبي.. الذي عاش الفترة الأعظم من حياته في كنف ابن سعود وساهم كما يذهب لوتسكي المؤرخ الروسي في صناعة الاسطورة، في شخصية عبد العزيز. ومع هذا فكأن المؤلف يريد أن يقول لنا، ان فيلبي لم يستطع أن يدرك أعماق هذه الشخصية، أو أنه لم يعطها حقها! فبالنسبة لمؤلف كتابنا ديفد هوارث، لم يكن فيلبي يمتلك مميزات ت.ي. لورنس «وهو لم يكن جندياً كما لم يكن شاعراً. لقد كان لورنس دائماً شخصية بطولية. ولكن فيلبي لم يكن ذلك يوماً. مع أنه عاش فترة أطول في الجزيرة العربية، ورحل أكثر».

وعلى البعد السياسي، والتعامل مع الخريطة السياسية للجزيرة العربية، وانجازات عبد العزيز على طريق المملكة العربية السعودية يتابع المؤلف هذه الانجازات مرحلة مرحلة.. وسط كثير من المصاعب وضروب الكفاح.. والتحديات الخارجية والداخلية.

فمن بعد احتلال الرياض، ووضع اللبنة الأولى في صرح مملكته، يحتل ابن سعود الأقرب إليها من ملك الأجداد، عنيزة وبريدة. ولعل الذي يبهرك - في هذا المجال - من كتاب المؤلف، في حقيقة الأمر، أنه يصور لك ابن سعود أمرءاً لا يضع عصا القتال أبداً. بل أنه ينتقل من معركة إلى معركة، ويخرج من قتام إلى قتام! كما قال المتنبي.. ويضيف المؤلف إلى ذلك إلى صمام الأمان في صبره وثباته.. ووقود صموده واستمراريته ودأبه وهو زهده أو ما يصفه بـ «البيوريتانية».

على أن ابن سعود يتصدى لقتال ابن الرشيد وحليفه التركي. وهنا يتحدث الكاتب عن مأساة كتيبة تركية تعد بالمئات وتملك المدافع.. ولكنها تضيع في رمال الصحراء.. جهلاً وانعدام حماس وتخطيطاً..

وفي عام ١٩١١ يحتل عبد العزيز بن سعود الهفوف عاصمة الاحساء في ضربة خاطفة تذكرنا باحتلال الرياض.. بدهاء وشجاعة قادرين. يحتلها بعد أن يكون قد خير الانجليز، أو أنه تفاهم معهم، على أن يحموا ظهره في البحر، من هجوم تركي متوقع. كما أفاد من صعوبة موقف تركيا الدولي في حروب البلقان وليبيا.

كما أن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، تشهد صراعاً آخر، له أبعاده العسكرية

والسياسية الأكثر تعقيداً. ذلكم هو الصراع مع الشريف حسين. وينتهي هذا الصراع لصالح ابن سعود، بعد أن تكون بريطانيا قد استنفذت أغراضها من الشريف، وأدارت له ظهر المجن، وهو الذي ما انفك يتهمها بالغدر والنكران للجميل بعد أن تجسد له عمق المؤامرة الدولية التي حاكت خيوطها الحليفة البريطانية بالاتفاق مع فرنسا.

وفي عام ١٩٢٦ كان ابن سعود، قد أصبح ملك الحجاز وسلطان نجد..

وتبقى صفحة خاصة جديرة بالاعتبار في الكتاب، تلك الصفحة التي تحكي عن صراع ابن سعود مع الاصدقاء.. مع «الاخوان الوهابيين».

وجوهر الأمر في هذا الصراع، أن «الاخوان» وهم غلاة الوهابيين، وأكثرهم حماسة للغزو والحرب، تحولوا - كما يذهب الكاتب - إلى أن طوروا زخماً من نوع خاص غايته الغزو للغزو! أكثر من ذلك الغزو من أجل السلب والنهب مستندين على مفهوم مؤداه أن كل من ليس معهم، فهو عدوهم، وعدو كافر.. يستحق أن يصادر نفسه وماله. وفي هذا المجال يتحدث الكاتب عن شخصيتين كان لهما في هذا الشأن دور كبير. ذلكما هو فيصل الدويش زعيم قبيلة مطير، وقاعدته في الأرطاوية على الحدود الشرقية السعودية، قريباً من الكويت. وابن حميد وقاعدته إلى الشمال من الرياض، في غات غات. وكلاهما شخصية تمتلك صفات القيادة والزعامة البدوية. وكل منهما أمير بطريقته. ويقف المؤلف عند ظاهرة اثبات حماس هذين الزعيمين واضرابهما للغزو فيصفها بأنها حمّى تملكتهما إلى حين. فيشبه دورهما بدور جنكيز خان، الذي اشتعلت نار الغزو لديه ولدى قبائل التتار فترة من الزمن.. إلى أن انطفأت من تلقاء ذاتها، بعد أن أكلت ذاتها واستنفذت مدّها وزخمها..

وهو يعقب على ذلك قائلاً:

«كان هنالك عدد كبير من غير المؤمنين ممن ينبغي ايقاع الهزيمة في صفوفهم.. حتى إذا ما أحرق حماسها ذاته فإنها تتوقف لأنها فقدت زخمها»

غاية الأمر أن الدويش وابن حميد يُمعنان في السلب والنهب.. متذرعين بذريعة عقائدية، وهي استمرا الثورة الدينية، وضم مساحة أكبر من الأرض لها ويسلطان قواتهما على صحراء جنوب العراق، فيذيقان البدو في تلك الجهة، الوان العذاب ويقتلان منهم شرّ مقتلة. ويسببان الكثير من الذعر والارهاب حتى لقد أصبحت صيحة «الدويش!

الدويش!» تهيج الأطفال والنساء في الصحراء فيفرون وهم لا يلوون على شيء! إلا أنهم كثيراً، ما كانوا يسقطون صرعى القتل والسلب والنهب.

وهنا يتدخل الكاتب - متحيزاً - بشكل ظاهر، فيضع الانقاذ على يد كابتن صغير ناشيء ممتليء «بتقاليد بريطانية البناءة الحضارية»، وهو جون باجوت كلوب، مسؤول البوليس في جنوب العراق، والذي يضرب الدويش وابن حميد وجنودهما بالطائرات ويجلب عليهم بخيله ورجله، حتى يسكت اندفاعهم ويصدّ هجمتهم، ويحمي البدو «المساكين» منهم.

فيرتد «الاخوان» إلى الاغارة على القبائل في داخل شبه الجزيرة بعد أن لم يجدوا متسعاً في خارجها، لنزعتهم إلى الغزو. ولسان حالهم:

وأحياناً على تيم أخينا إذا ما لم نجد إلّا أخانا..

يتصدى عبد العزيز بن سعود لهؤلاء الغزاة، وقد تسببوا له في كثير من الازعاج في الخارج والداخل، كما أنه خشي أن يستغلهم الانجليز كمخلب قط للهجوم عليه.. أكثر من ذلك لقد اتكأ الاخوان في خصامهم مع ابن سعود على أمور ايديولوجية متصلة بصميم العقيدة وتطبيقاتها. فقد طلبوا إليه أن يتوقف عن استخدام أدوات الكفار التي أدخلها في حياته ودولته: السيارات والهواتف والراديو الخ.. كما أنهم اتهموه بكبح جماح المدّ الاسلامي خارج الجزيرة، وحيث ينبغي أن يكون. وانه أصبح ملكاً بدلاً من أن يكون أميراً للمؤمنين. وكأنهم بهذا يريدون (لثورتهم) الاسلامية أن تستمر إلى مالانهاية... وحتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. وهذا أمر معهود لدى كل راديكالي الثورات الايديولوجية الكبرى في التاريخ. أو أنه الصراع العتيد بين منطق الدولة ومنطق الثورة..

إلا أن الكاتب لا يغمط الدويش حقّه فيذكر صفات جليلة لابنه - ابن فيصل - ويلقب بعُزَيز - تصغير عبد العزيز - والذي هو صورة من النبل، تختلف كل الاختلاف عن صورة والده. يقول عن الدويش الابن:

«فمن يذكرونه، يذكرون أنه جذّاب. أمير صحراء. لأن الرجال كانوا ينقادون له باخلاص وحتى الموت!».

ومهما يكن من أمر فإنه كان لا بد للصراع الداخلي ان يُحسم، ولم يكن إلا السيف

حاسماً. فابن سعود في شؤون شبة الجزيرة لم يكن – رغم تسامحه العظيم مع الأفراد – ليؤمن إلا بالحسم والوصول بالامور إلى غاياتها. فقد جرّ الحليفين الدويش وابن حميد إلى معركة فاصلة، هي سبلا، وجلب لها عدة وعتاداً كبيرين وزودها – وهذه كانت بدعة جديدة – برتل كبير من السيارات المعبأة بالجنود المسلحين من أنصاره، واخترق بها الجزيرة من الغرب، نحو أقصى الشرق، حيث كان أعداؤه في انتظاره، وقد جمعوا صفوفهم. وهنا يشبه الكاتب حملة ابن سعود هذه بحملة هانيبال، ووجه الشبه أن سيارات ابن سعود أو أحصنته الحديدية، هي كالأفيال التي قادها هانيبال عبر الألب، فولّدت الخوف وقذفت الرعب في قلوب الرومان. أجل لقد ولدت سيارات ابن سعود – في ذلك الوقت – بهديرها وقعقعتها وقضها وقضيضها ما كان يريده منها، وأرهبت خصومه، وأرهقتهم من أمرهم عسراً. فلم يلبث أن تغلب عليهم. وسلّم ابن حميد نفسه. وبعد هذه المعركة، لم يقم هؤلاء الخصوم إلا ببعض المناوشات، وانتهى امرهم تقريباً، أو أنهم لم يعودوا يشكلون خطراً.

ويختم الكاتب كتابه باقبال الدنيا – التي لم تقض على أصالته ولم تغير كثيراً من سمات شخصيته كأمير بدوي – على ابن سعود. فقد اكتشف النفط. وسعدت المملكة بثروات انصبت عليها انصباباً، فحلت كثيراً من المشاكل المادية، التي طالما عانى منها ابن سعود. وأسهمت في توطيد أركان دولة هي بين أبرز وأقوى الدول العربية في الوقت الراهن.

★ ★ ★

وبعد فإن هذا الكتاب، الذي كتب بروح وتعاطف ومحبة صادقتين نحو ابن سعود، لا يخلو من بعض المآخذ: ذلك أنه بمقدار حماسه لابن سعود فإنه بالمقابل يطغى أحياناً في الحكم على العقيدة التي يعتنقها ابن سعود. بل أنه لينفذ إليها من خلال تحليله المبغض لشخصية ابن حميد، أحد زعماء الاخوان، فيتهمه – ويتهمها – بأنه يؤمن بعقيدة طائفية بالية، مضى عليها أكثر من ألف عام.

ولعله في هذا وقع في شيء من التناقض، إذ أن احدى معالم التفوق في شخصية ابن سعود، هي زهده وايمانه العميق بعقيدته، ذلك الايمان الذي كان اكسير نجاحه، والمعين الذي يمدّه بطاقة روحية لا تنضب. طاقة يسلطها على الشدائد فتنفرج! أكثر من ذلك فإن المتعمق في دراسة الكتاب ليجد أن طاقة ابن سعود الروحية هي التي جلعت منه بطل

الصحراء العربية، والقائد العسكري والمحارب الأول في شبه الجزيرة العربية.

ولعلنا نستطيع أيضاً أن نأخذ على الكتاب ناحية منهجية. فهو لا يخلو من محاولة ابراز دور عبد العزيز بن سعود من منظور انجليزي: الشواهد انجليزية، المصادر انجليزية والشخصيات البارزة في الدراسة انجليزية. حتى أننا لنستطيع القول أن كل فصل من فصول الكتاب وكل موقف بطولي من ابن سعود له ما يوازيه من شخصية انجليزية مطابقه أو موازية.. او ذات علاقة - بصورة ما - بابن سعود: فهو يقف وقفات طويلة عند برسي كوكس رمز الموظف الانجليزي الذي لا يعتريه الفساد. كما أنه يشيد بروح شكسبير البطولية، ووقفاته المغامرة ويحاول أن يضعه في مصاف لورنس الذي أخذ أبعاداً بطولية ورومانسية في الأدب الانجليزي الحديث - السياسي وغيره - تتجدد كل يوم، في فصول متتابعة، وقد بلغ الاعجاب بهذه الشخصية إلى الحدّ الذي حدا بتشرشل الاستعماري العتيد والشخصية العملاقة - وكما تذكر بعض المصادر - أن يتطلع إليه (للورنس) بنظرة ممزوجة بعبادة الأبطال.

كما أن فيلبي يلقى شيئاً من التعاطف من الكاتب لا يبلغ على أي حال تقديره لضابط ناشيء هو جون باجوت جلوب، الذي هو منفذ أمين لمبادئ الامبراطورية العظمي في الرحمة والشفقة والتضحية.. من أجل الضعفاء والمساكين والمشردين!

أما ديكسون فيقوم باستئناس البدو، والعيش بسلام بينهم فيحقق لهم بانسانيته، ووداعته ما حققه جلوب بالمدفع والرصاص، أما جرترود بل فهي - في نظره - الباحثة عن الحقيقة، المسجلة باخلاص لها...

كل هؤلاء يدخلون القصة السعودية (قصة عبد العزيز) من أوسع أبواب الحصافة والنزاهة والبحث عن الحقيقة والدفاع عن الحق.. ولكن الدارس المنصف ليدرك تماماً - كما كان يدرك ابن سعود - ان هؤلاء قاموا بأدوار مرسومة، سرية وعلنية، من أجل عزف نشيد متكامل في سيمفونية الاستعمار البريطاني، وان نواياهم لم تكن دائماً خالصة نحو طرف من الأطراف - بمن فيهم ابن سعود - إلا بمقدار ما يخدم ذلك المصالح البريطانية بالدرجة الأولى.

لقد كانت المنهجية والاخلاص الكامل للحقيقة التاريخية، تتطلبان من المؤلف، أن يوسع في قاعدة مصادره، وان تشمل هذه المصادر، مصادر اخرى من غير الانجليزية.. وان لا يضع الانجليز دائماً - تقريباً - في خلفية الصورة في الموضوع الذي يعالجه..

كما أننا يمكننا أن نأخذ على الكاتب أنه ينفرد بتوجه خاص وباستنتاج معين بين كثير من المؤرخين الانجليز. وذلك أنه يناقض كثيراً من التراث الانجليزي حول الثورة العربية الكبرى - ثورة الشريف حسين. واستنتاجه - في مجمله - مؤداه أن «اخراج» الثورة العربية من قبل الانجليز كان أمراً خاطئاً او مؤسفاً. فعند حديثه عن شكسبير رسول بيرسي كوكس إلى ابن سعود والذي - كما أسلفنا - قتل في احد المعارك مع ابن الرشيد يقول أنه لو كتب لشكسبير الحياة، لربما تغير وجه التاريخ. ولكانت الثورة التي قادها الشريف حسين ضد الأتراك وسِدَّت لابن سعود. وقام بأعبائها الوهابيون الشجعان. يذكر: «لم تُقدّم القيادة لابن سعود ولكنها قدّمت لشريف مكة، في حملة لورنس العبقرية في الغرب. وقبل وفاة شكسبير، كان، قد أبدى مقدرة نادرة، يشترك فيها مع لورنس، في كسب ولاء العرب. وأنه لا يوجد مدعاة للشك في أنه لو قدر له العيش، فإنه كان سينظم الدعم البريطاني لابن سعود. ويقود ابن سعود الاخوان والبدو، الذين كانوا رجالاً يتقنون صناعة الحرب، أكثر من رجال الشريف. يقودهم - أي شكسبير - اما إلى بغداد، وإما إلا الغرب، باتجاه خط حديد الحجاز، وعلى هذا فإن حملة لورنس ربما لم تكن ممكنة، أو ضرورية وان أثره العظيم (أعمدة الحكمة السبعة) ربما لم يكن ليكتب».

ونحن الذين لا نقلل من شأن ابن سعود، ومقدرته القيادية الكبيرة التي قد تصل إلى درجة الاسطورة - تشهد بذلك صفحات الكتاب الذي بين أيدينا وغيرها - لا نستطيع أن نوافق الكاتب على ما يذهب إليه. بل إن ما يذهب إليه ليدعونا أن لا نتورع من اتهامه بالمبالغة والتي من السهل الرّد عليها بما يأتي:

أولاً: لم يعرف عن ابن سعود الطموح للدخول في مغامرات، أو صفقات سياسية غير مدروسة، أو غير معروفة الأبعاد بل كانت استراتيجيته من البداية إلى النهاية: التركيز على الجزيرة والجزيرة فقط. فلم يكن لديه طموحات لحكم العالم العربي. كما أنه لم يطمح - كما هو معروف من المصادر التاريخية المعتمدة - للخلافة الاسلامية بكل أشكالها الشائكة.

وقد شاهدنا أنه هو الذي كبح النزعة المغالية، في مدّ حدود الدولة السعودية، إلى خارج الجزيرة العربية.

أجل لقد كان ابن سعود سياسياً بعيد النظر، واقعياً براجماتياً، ليس على استعداد أن يأخذ أكثر مما يستطيع استيعابه. كما شعر أن مجاله الحيوي - وهو البدوي

الملتصق بالصحراء وبقوة – هو الجزيرة العربية. ووراءه في ذلك تجربة تاريخية عميقة، تردعه، فقد تكاتفت العوامل الدولية على زعزعة سلطان السعوديين عن أرضهم، عندما تحولوا إلى فاتحين متوسعين في أوائل القرن التاسع عشر. وعلى هذا فهو في غنى عن أن يدخل في صراعات دولية غير مأمونة الجانب. أكثر من هذا فإن الكاتب، واسم كتابه، وكافة مناقشاته التي تؤيد اطروحته في هذا الكتاب، تجعل المسرح الأساسي لنشاط ابن سعود، المحارب الكبير، هو الجزيرة العربية وليس ما وراء هذه الجزيرة.

ثانياً: ان الكاتب يتجاوز الحقيقة عندما يعتبر الثورة العربية – في جوهرها – خطة أو احبولة بريطانية مدبرة، وأن العرب، ليسوا سوى أدوات طيعة، في يد بريطانيا، أو أن الدور العربي كان اضافياً. وآية هذا الرأي، وغايته، هو تحجيم وتقزيم هذه الثورة، ومحاولة هادفة لحرب هذه الثورة، وسلبها الكثير من أصالتها، التي تكونت وتبلورت قبل وقت كبيرة من اندلاعها، تلك الأصالة التي ساهم في تعميقها مفكروا الثورة ومنظروها، كما ساهمت في صناعتها – تاريخياً – الجمعيات والاحزاب العربية قبل اشتعال نار الثورة بعقود طويلة.

حقاً أن بعض اللوم قد يقع على الشريف حسين لأنه لم يحسن قيادة هذه الثورة، كما يذهب الكاتب، ولكن ليس للأسباب التي أبداها، فنحن نرى أن من يريد الالقاء باللائمة على الشريف حسين قد يجد سبباً لذلك في أنه آمن واطمأن للانجليز وأعطاهم من الثقة أكثر مما ينبغي. ولم يحسب حسابات المستقبل معهم بدقة. وليس لأي أسباب أخرى قد تتعلق باسلوب القيادة وتوجيه دفة القتال أو نوعية المقاتلين. ومصداق هذا الرأي ودليله يكمن في أن الشريف حسين تمادى في ثقته في الانجليز. ولم يتحول عنهم في اللحظة الحاسمة عندما تكشفت له بنود معاهدة سايكس بيكو (١٩١٧) التي تناقضت تناقضاً صريحاً مع وعودهم له في مراسلاته المشهورة، وقد تجلى سوء النية من قبلهم نحوه، عندما وضح أن جزاءه أنهم نقموا عليه عندما استنكر سياستهم المقيتة نحو العرب بعد الحرب. فقد رفض قرارات مؤتمر فرساي، ومؤتمر سان ريمو، كما رفض حضور مؤتمر لوزان الذي كرّس التقسيمات الاستعمارية للوطن العربي، كما أنه لم يوافق على وعد بلفور. وكان من جراء هذه النقمة أن أشهرت ضده الأقلام الاستعمارية الانجليزية ورفدتها الأقلام الصهيونية، وصورته لموقفه الرافض هذا – وليس لدوره في الثورة

– صورة بائسة كئيبة. ولعل هذه الصورة قد انعكست فيما بعد على دوره التاريخي في الثورة، مما جعل هوارث يجيء ليقول هنا أن ابن سعود كان ينبغي أن يقوم بالثورة! أكثر من هذا أن الأقلام الصهيونية – بصورة خاصة – تحرص ايضاً على حرمان العرب – بقيادة الشريف حسين وابنه فيصل – من أي دور تاريخي مذكور، وانحاز عسكري هام إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى نفسها. وهم بذلك يحرمون العرب وبخاصة الفلسطينيين منهم، من حق تاريخي ذي شقين:

الشق الأول: أن مراسلات الشريف حسين مكماهون التي مهدت للثورة، وكانت بمثابة معاهدة سياسية، هذه المراسلات تنص على أن تكون فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة العربية المستقلة الواحدة. وهذه المراسلات من الناحية القانونية أقوى أثراً، كما أنها اسبق زمنياً، من وعد بلفور. وهذه قصة، التوسع فيها، غير وارد هنا. وغاية الأمر أن العرب لم يحصلوا على هذا الحق القانوني الا كمقابل موضوعي لدورهم في الثورة.. فهو ليس منحة كوعد بلفور. وإذا جرّد هذا الحق من مقابله الموضوعي فلا قيمة حقيقية له.

والشق الثاني هو أن الجهد العسكري العربي كان جهداً كبيراً وفعالاً، حمى ميمنة اللنبي أثناء تقدمه المحوط بالمصاعب في فلسطين، كما أنه سدّ في وجه القوات الألمانية والتركية البحر الأحمر.. وغني عن القول أن هذا الجهد هو الذي جنّب الانجليز هزيمة متوقعة. لا سيما وأنهم هزموا في أكثر من موقع من قبل الأتراك، وكانت للمعركة في احدى مراحلها الحاسمة، معركة كرّ وفرّ، كما أن الاتراك هزموا الانجليز هزيمة ساحقة في الكوت في العراق، وأسروا منه الألوف المؤلفة.

أقول أن الجهد العسكري العربي الكبير من خلال الثورة على الأتراك، وملاحقتهم في صحراء الحجاز والأردن في ملاحم معروفة، لم يكافأ عليه العرب، إلا بالجحود والنكران وتمزيق الأوطان.

على هذا فإنني لا أخال الكاتب رغم جهده الواضح في الحديث عن ابن سعود بروح منصفة أحياناً كثيرة، إلا أراد أن يمحو بجرة قلم دور الثورة العربية، حتى لا يترتب عليها أي حقوق سياسية أو قانونية للعرب على بني قومه الانجليز وذلك من خلال محاولة افتراض دور آخر لعبد العزيز لم يكن يفكر أو يقبل به.

ولعلّ المفارقة في الصورة التي يرسمها الكاتب تبدو واضحة جلية عندما نتذكر أن الجهد العسكري الصهيوني والذي هو قليل إذا قورن بالجهد العسكر العربي، مع الحلفاء، أخذ - في كتابات الغربيين والصهاينة - أكثر مما يستحق بكثير. وصنع له شهداء مثل ترمبلدور، كما خلق له أبطال مثل جابوتنسكي وابن غوريون واسحق بن تسفي وغيرهم من قادة الفصيل الصهيوني في جيش الحلفاء.. وبالمقابل فإن الجهد العربي الفلسطيني - مثله مثل الجهد العربي بعامة - والذي تمثل بحشد عشرة آلاف مقاتل بقيادة محمد أمين الحسيني، التحقوا بجيش فيصل وقاتلوا معه حتى دخلوا دمشق.. هذا الجهد الفلسطيني لا يشار إليه إلا عابراً، أو أنه يتناسى مطلقاً، وستبقى من الأخطاء التي لا تغتفر في نظر المقولة التاريخية الصهيونية ما سجله لورنس من دخول القوات العربية دمشق محررة لها، قبل القوات الانجليزية. وتتمادى هذه المقولة في الزعم أن الثورة العربية ليس لها من الثورة إلا اسمها، وأن كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» الذي هو خيال كاتب أو شاعر رومانسي... وكما يصفه هوارث أيضاً.. مجمل القول ان هذا الكتاب شأن كتابات كثير من المؤرخين والكتّاب السياسيين الغربيين، يحتاج منا ألا نأخذه على علاته، وألا نعتبر ما جاء فيه مسلّمات لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا خلفها. بل نرصد تحامله وأوجه المبالغة فيه بعين ناقدة بصيرة.

بقي أخيراً أن نقول أن هذا المرجع يظل أساسياً، وضرورياً في دراسة صفحة من تاريخ الجزيرة العربية، ووسيلة طيبة للعيش فترة جميلة في ظلال ونفحات شخصية عظيمة، هي شخصية عبد العزيز ابن سعود، بانجازاته، ذات الأبعاد التاريخية الكبيرة والتي قد يستمر أثرها إلى مدى طويل.

الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى*

كتاب «الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى» كتاب كبير القيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية. ويستمد هذا الكتاب أهميته لا لكونه أثراً وثائقياً فحسب كما سنتحدث عنه أدناه - ولكن لكونه - أيضاً - أثراً نفيساً في فرع هام من فروع الجغرافية ألا وهي الجغرافية السياسية Geopolitics. ونعني بالجغرافية السياسية تأثيرات الجغرافية العامة بمعناها الواسع: سطحاً ومناخاً وموقعاً وبشراً ومدناً على الموقف أو القرار السياسي أو العسكري في بلد معينة. وحقيقة الأمر أن الكتاب - موضوع الدراسة - ألف ابتداء من أجل غرض سياسي قوامه عرض سياسي وعسكري للحجاز، غايته توظيف هذه البلاد، ملكاً وأسرة هاشمية وشعباً (مدنياً وبدوياً) لمجهودات الحرب البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى. فهو لا يعدو أن يكون - وكما يقول كاتب مقدمته - «كتاب دليل الحجاز The Handbook Of Hijaz كان محاولة لجمع كل ما هو معروف عن مسرح حرب كانت تتزايد أهميته يوماً بعد يوم في مجلد واحد - وقد أعد للاستعمال الداخلي للمكتب العربي Arab Bureau، الذي كان اضافة إلى دوره في المخابرات عن المنطقة، مشغولاً بصورة نشطة في ارسال امدادات عسكرية لثورة شريف مكة ضد الأتراك، وقد أرسلت منه نسخ إلى مركز القيادة الرئيسي G.H.Q في القاهرة وإلى وزارة الخارجية من أجل الاسهام في متابعة التقارير عن الأماكن والأشخاص كما ترد تباعاً».

المؤلف الرئيسي لهذا الكتاب هو اللفتنانت كوماندور د.حـ. هوجارث (١٨٦٨ - ١٩٢٧). وهو شخصية يلفها الغموض، يشبهها مقدم الكتاب ر.ل. بدول، باحدى شخصيات المؤلف الروائي الانجليزي بوكان Buchan وكان على علاقة وطيدة، وإن كانت غير رسمية، بالاستخبارات البريطانية. ومهما يكن من أمره، فقد عمل هو جارث عالماً للآثار، وقام بدءاً من عام ١٨٨٠ بسلسة من الرحلات إلى آسيا الصغرى (مركز الدولة العثمانية) وإلى تلك الأجزاء من البلاد العربية، التي كانت خاضعة للدولة العثمانية مثل سوريا.

---

* تأليف: ديفد جورج هوجارث.

أتاحت صفة هوجارث هذه، كرحالة وعالم آثار، ذي صلة وطيدة بأجهزة الحكم البريطانية، أن يجمع مادة مصدرية أتت من معاناته المباشرة، ومشاهداته الملموسة للأشياء، من هنا نبعت القيمة الوثائقية العظيمة لهذا الأثر الذي ندرسه. فهناك مادة أولية مستمدة من دائرة الاستخبارات التابعة للادميرالية البحرية البريطانية، كما أنه اعتمد على مصادر عربية محلية. والنسخة التي بين أيدينا، وتقع في ١٥٥ صفحة من الحجم المتوسط، (وهي الطبعة الثانية للكتاب) تعتمد اعتماداً كبيراً على روايات وتقارير الأشخاص الذين اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأحداث والناس وكانوا على اتصال، بصورة خاصة، بالمجتمع العربي بالحجاز.

ولعل مما يكسب الكتاب قيمة اضافية في توثيقه Documentation أنه لم يكتف بالمصادر الرسمية، والروايات والتقارير المباشرة للأشخاص عما شاهدوه ولمسوه واكتشفوه. بل أن الكتاب تميز أيضاً بالشمولية واستوعب كاتبه كل ما كتب قبله عن أدب الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية. فقد كتب الكاتب، فضلاً عن هذا الكتاب، كتاباً أسماه «اختراق الجزيرة العربية» في عام The Penetration of Arabia ومن هنا فإن القارئ الفاحص المدقق، يلمس في كتاب «دليل الحجاز أو الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى» أصواتاً مألوفة لجميع الرحالة والبحاثة الأوروبيين، الذين تحدثوا عن الجزيرة العربية، ووصفوها من زوايا متعددة. نجد الرحالة الانجلو سكسوني جوهان لودفيج بوركاردت، والهولندي سنوك هور جرونجي، وسير رتشارد بيرتون، وآرثر ويفل، ودوتي، ودوجلاس كراثوروز وكارولوا جوار نامي.

وتتكرر هذه الاصوات المألوفة في كتاب هوجارث ونجد صداها في تقاريره الشيقة عن الشخصيات العربية. وهنا نجد بصورة خاصة أصداء رونالد ستورز، و ت.ي. لورنس وتقرأ فيه مثلاً عن فيصل بن الحسين ما تقرأه عنه في «أعمدة الحكمة السبعة».

وقد انعكس أثر هذا التوثيق الدقيق على موضوعات الكتاب التي عالجت جوانب كثيرة منها: الموقع والتضاريس والسكان والتقسيمات الادارية وحياة البدو والحياة السياسية والأشخاص والحج والتجارة والصناعة والمواصلات والطرق.

ولما لم يكن من شأننا، كما أنه ليس في مكنتنا، أن نتحدث عن هذه النواحي جميعها في هذه الدراسة الناقدة للكتاب، فإننا سنقتصر على أبرز الجوانب التي عالجها، والتي أكسبته قسماته، وملامحه المميزة.

في الجغرافية الطبيعية والبشرية للحجاز يتحدث المؤلف عن الحجاز: موقعه وحدوده ومناخه. ويستولي الحديث عن المدن الثلاث الرئيسية في الحجاز، مكة والمدينة والطائف، على اهتمام كبير. ويقف المؤلف عند هذه المدن الثلاث وقفة أو وقفات خاصة، فيصف مكة والمدينة بأنهما مدينتان عالميتان Cosmopolitan . ومكة كما يصفها - وكما هي الحقيقة - مدينة جرداء قاحلة غير ذي زرع، تشتد حرارتها في الصيف آناً حتى كأنها تنور يفور. أما المدينة فهي - على العكس من مكة - أرض ذات زرع وخصب، فيها ١٣٩ نوعاً من التمور. وما الطائف إلا مدينة محبوبة، أكثر جمالاً وألطف مناخاً، وأكثرها نعيماً ورغد عيش. وتشكل هذه المدن الثلاث العمود الفقري للجغرافية البشرية لسكان الحجاز، بينما يشكل البدو - بالمقابل - القسم الأهم الباقي لهذه الجغرافية. والبدو هم الذين يأخذون من الكاتب - شأنه في ذلك شأن الرحالة الأوربيين جميعاً - اهتماماً عظيماً، رغم أن حياتهم كما يصفها الكاتب نفسه هي الأسوأ، وبخاصة إذا ما قورنت بحياة المدن التي يعتبرها الأفضل والأحسن.

يتحدث الكاتب عن حياة البدو قبيلة قبيلة. ويطيل في ذكر القبائل - في أول أثر من نوعه على حد علم كاتب هذه السطور - فهو يذكر قبيلة الحويطات التي اكتسبت شهرة خاصة في الثورة العربية الكبرى، من خلال دور زعيمها، عودة أبو تايه. كما يذكر بني عطية، وقبائل بيلي وجهينة وحرب وعتيبة، ويعتبر هذه الأخيرة أقوى القبائل في وسط شبه الجزيرة. كما أنه يتحدث عن أعرق هذه القبائل جميعها وأصلها محتداً وشرفاً، وهي قبيلة الأشراف، التي ينتسب إليها حكام مكة، ومنهم في هذه الفترة، الشريف حسين. وحديث الكاتب عن هذه القبائل، التي يعتبر الفقر معضلتها الأساسية، حديث مُسيَّس، ان صح لنا القول، وهذا التسييس ينبع من ويرتكز على ناحيتين أساسيتين: الناحية الأولى هي دور هذه القبائل في حماية خط حديد الحجاز الذي هو أحد الموضوعات المحورية في الكتاب، واحتل من السياسة الانجليزية في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين اهتماماً كبيراً، وذلك باعتباره تهديداً خطيراً للاستراتيجية البريطانية نظراً لكونه أحد مظاهر سياسة الزحف الألماني نحو الشرق Drang Nach Osten وما يستتبع هذه السياسة من خطر على الممرات والمعابر البريطانية إلى الهند. وعلى هذا فإن الكاتب يستغرق جهداً كبيراً في الحديث عن هذا الخط، في مواقع متفرقة من كتابه، وحديثه في الغالب مقرون بدور البدو الجذري في التحكم بهذا الخط حفاظاً عليه أو تخريباً له.

والناحية الثانية، هي الموقف السياسي، والاستراتيجي لهذه القبائل وشيوخها،

وولاءاتها الثابته، أو المتذبذبة، وبصورة خاصة نحو مراكز القوى الثلاث في الحجاز في هذه الفترة: قوة بريطانيا المتصاعدة، وقوة الشريف حسين التي تحاول الانفكاك من السيطرة العثمانية. والقوة الثالثة هي القوة التاريخية الغاربة، الدولة العثمانية. ويأتي الكاتب هنا - أي عن البدو - بمادة مصدرية ممتازة، ينفرد بكثير منها بين المراجع جميعها.

وهذا الحديث عن القبائل يقودنا إلى حديث الكاتب عن الجغرافية السياسية للحجاز. وهنا يتحدث الكاتب عن علاقة الحجاز الولاية العثمانية بالسلطان العثماني، ودور الشريف حسين في اطلالته الجديدة، وتطلعه نحو الاستقلال الكامل بشؤون هذه الولاية. فهو يحاول احكام قبضته - من موقعه كأمير وحاكم ذي طابع قبلي - على المدن والمقاطعات والقبائل المختلفة. وسط محاولات مماثلة من العثمانيين أن يبسطوا نفوذهم، ويثبتوا قبضتهم إلى أطول مدى ممكن. وهنا يتدخل الانجليز لتوظيف هذا التناقض المحلي (الشريفي) - العثماني لصالحهم. والكتاب في حقيقة الأمر، وفي جزء كبير منه، هو وصف لحسم هذا التناقض لصالح بريطانيا. فقوة الشريف المتنامية تجد عطفاً وتعاطفاً خاصين من بريطانيا ومن نقطة الضعف الأساسية والشرخ والجذري الذي ولده هذا التناقض في الجبهه العربية الاسلامية - عرباً وأتراك - يكون النفوذ أو الاختراق البريطاني. وعليه تعرف بريطانيا كيف يكون لها نصيب الاسد في هذا الصراع، وتنجح في توظيف الموقف العربي لصالحها، بعد أن توهم الشريف حسين بأنها جادة في رعاية طموحاته في الاستقلال ليس في الحجاز فقط وانما في البلاد العربية قاطبة في آسيا، من مرسين وأضنة في تركيا إلى عدن في جنوب شبه الجزيرة.

ومما له علاقة وطيدة بالجغرافية السياسية للحجاز حديث الكاتب عن الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في الخريطة السياسية للحجاز، حديثاً وافياً ضافياً يكشف المواقف المختلفة لهؤلاء الأشخاص واتجاهاتهم. ويشمل هذا الحديث، فيما يشمل، الشريف حسين وأبناءه الثلاثة المشهورين: فيصل وعبد الله وعلي، مروراً بكبار أسرة الاشراف إلى غيرهم من علية القوم ممن يشكلون مفاتيح أساسية، في مواقعهم المختلفة على اللوحة الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية، وتنبع أهميتهم من منصب معين في رئاسة قبيلة أو ثراء أو ثقافة أو غيرها. وحديث الكاتب عن هذه النخبة يتناولها - كما تتناول التقارير السرية البريطانية عادة - من نواح عديدة: الملامح الجسدية أو البدنية، ولون العينين، والقامة، ولون البشرة، واللباس والقسمات النفسية وطريقة التفكير والولاء نحو احدى القوى

الثلاث المؤثرة، والتي أشرنا إليها آنفاً، بريطانيا والشريف حسين وتركيا. كما أنه لا ينسى أن ينفذ إلى نواحي القوة والضعف في هذه الشخصيات، وعلى هذا فهو يتناولها بأبعادها المختلفة، فيرسم لها لوحة تكاد تكون كاملة، الأمر الذي شكل رصيداً كبيراً في تفسير تطور الأحداث في هذه الفترة لما لهذه النخبة من دور كبير في رسم صورة هذه الأحداث. وفي علم كاتب هذه السطور فإن ما كتب عن الأشخاص في كتاب هوجارث كتابة سياسية هادفة كاشفة من أكثر ما كتب - نسبياً - عن الأشخاص كما وكيفا في السجلات العامة البريطانية .P.R.O وهذا ان كان يدل على شيء فإنما يدل على أهمية المرحلة التي كتبت هذه التقارير من خلالها. ومن مجمل المواقف المختلفة لهؤلاء الأشخاص ومواقفهم الثابتة أو المتغيرة والمتذبذبة كان بامكان السلطات البريطانية - اضافة إلى المعطيات الأخرى - صناعة القرار السياسي وتحديد الموقف اللازم.

ومهما يكن من الأمر فإن هذه التقارير عن الأشخاص رغم ما يشوبها عادة من تحامل وتضليل لا تخلو من صدق - ان صح لنا القول - ومن جمال. ذلكم الصدق والجمال الذي هو أقرب للفن وأكبر من مجرد تقرير سياسي، والذي يذكر قارئه بفن التشخيص (أي الكتابة ورسم الأشخاص) ونلمسه لدى كبار الروائيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الأدب القصصي الغربي. وليس هذا الأمر بمستغرب، فإن فهم الأشخاص لا يحتاج إلى عين عادية فقط لمعرفتهم، بل يحتاج إلى فراسة ثاقبة واستبطان دقيق لا يستطيعها إلا عالم خبير، أو امرؤ كبير الذكاء أو فنان. ولعل من هنا عمدت بريطانيا إلى توظيف أصحاب العقول والمقدرة الفنية الكبيرة لمهماتها الدبلوماسية والاستخبارية التجسسية. ولعل ما نذهب إليه من صفة الصدق في هذه التقارير يجيء من كون ما ذكر عن الاشخاص لا يتضارب مع ما ذكر في أكثر المصادر البريطانية بل يتواتر. فتقرير هوجارث عن فيصل بين الحسين شبيه بتقرير ت.ي. لورنس عنه. كما أن تقرير هذين لا يتعارض مع ما عبر إلينا عن فيصل وما ألف عنه من كتب فيما بعد.

يصف الكتاب فيصل بهذه السطور التي تشهد بالأصالة والصدق. فهو حالم الحالمين، ولديه المقدرة على تحقيق الأحلام. رومانطيقي على الرغم من واقعيته، ومن حيث الجاذبية الملهمة (الكاريسما) فهو معبود الجماهير. دعونا نتأمل هذه السطور: «فيصل طوال. مهيب رائع، عظيم القوة، لا يقر ولا يهدأ، وهو - أكثر تأثيراً وأثراً من سائر اخوانه. وهو يدرك هذه الحقيقة ويراهن عليها. يبدو كأوروبي.. ولديه جاذبية شخصية وحيوية ذاتية تفوق بدرجات ما لدى اخوته منهما، ولكنه مع ذلك أقل حكمة.

وعلى ما يظهر فهو شديد الذكاء، مندفع عندما يحزبه أمر من الأمور. وهو معبود للجماهير، مليء بالأحلام والمقدرة على تحقيقها. تضاف إلى ذلك فراسة شخصية ثاقبة وكفاءة كبيرة في العمل.. ميال إلى احتقار التفاصيل والجزئيات.. كتلة من الأعصاب.. وله تأثير ونفوذ واسع على البدو بوجه عام. وهو ذو شعبية كبيرة في سوريا وما بين النهرين» وهذه اللوحة النابضة العجيبة عن فيصل والتي تتناول أدق الدقائق وتنطرق إلى الظلال الواضحة، والباهتة في الشخصية، أمر يطرد لسائر الشخصيات، ولو أن وصف شخصية فيصل، بالذات، فيه توفيق كبير لعله مستمد من روعة الشخصية نفسها.

وعلى أية حال فإن التقرير عن الشريف حسين أمر يستأثر - أيضاً - بالاهتمام ويستوقف النظر. «ذو لحية كثة، ليست طويلة، رمادية، ويميل إلى البياض.. يداه طويلتان وقويتان وأصابعه ذات أطراف مربعة، تشبه أصابع موسيقي» وهو من حيث الملامح النفسية والشخصية، بعيد الغور، مفرط الذكاء «جم الأدب والحصافة، لدرجة توحي بأنه ضعيف، ولكن هذا المظهر يخفي وراءه مقدرة سياسية كبيرة وطموحات واسعة وبعد نظر ليس من شيمة العرب (كذا) ولديه - إلى هذا - قوة في الخلق وعزيمة واصرار».

وصورة الأمير عبد الله بن الحسين، من الصور التي لا تتناقض مع ما أثر عن هذه الشخصية، وصدقته الوقائع اللاحقة، فهو أيضاً طموح كبيرة يشرئب إلى تسلم سدة الخلافة الاسلامية، على عكس ما هو معروف في المراجع الأخرى، من أن هذا الطموح إلى الخلافة، تفرد به الشريف حسين، وعمل له، باعتباره شيخ الأسرة، وإلى هذا فإن تقارير هوجارث تصف عبد الله بأن قدراته العقلية لا تناسب أو توازي طموحاته. وكل ما يتميز به هو تأثيره - الحافز - على والده.

ومهما يكن من أمر ففضلاً عن حديثة عن الشخصيات الثلاثة البارزة التي مرت، فإن الكاتب يقف عند شخصيات أخرى، أقل شأناً، ويضعها تحت عدسته، وتصف ريشته ما تميزت به أيضاً. فمن بينها المتعلم والمتزن والثقة وذو الأرومة الطيبة، والحكيم والفاعل المؤثر وذو النفوذ الخ. ومن بين هؤلاء فوزي البكري الذي ينتسب إلى أبي بكر الصديق، والذي هجر أهله وولده وبلده دمشق ولجأ إلى الحجاز ليسهم في الثورة العربية تحدوه آمال عظيمة في الوحدة والتحرير، وكذلك فؤاد الخطيب محرر القبلة - جريدة الشريف - الذي يهاجر من السودان، ويمتاز بثقافة ومقدرة كبيرة على الكتابة السياسية. كما أن من بينها، على الجانب الآخر، المتقلب والسمسار والمتذبذب الذي يأكل على المائدتين أو الثلاث: العثمانية والانجليزية والشريفية. كما أن من بين هذه الفئة الثانية المتآمر والمريض بأمراض مشينة.

ولعل في دراسة هذه الشخصيات دراسة تحليلية ناقدة، مؤشرات صادقة على مجمل الموقف السياسي الذي آذن أو كان يؤذن بالتحول التدريجي عن العثمانيين إلى الانجليز بفضل جهود الشريف حسين الذي كان له دور العامل المساعد الذي يستطيع الترجيح. وقد كانت سمة هذه التقارير الاخرى أنها تقارير لم تكتب من أجل أن تكون - وكما أصبحت - مادة مصدرية تاريخية وسياسية، سمة يجد فيها الباحث منجماً كبيراً للمعلومات غير المعروفة. ان سمة هذه التقارير الأخرى أنها أوراق عمل - ان صح القول - وزيادة تقريب الصديق، أو كسب العدو إلى صفها.. وهكذا، ومن هنا فإننا لا نجد في كثير منها موقفاً ثابتاً للذين تتناولهم من الأشخاص. بل نجد أن كثيراً منهم يتحولون عن العداء إلى بريطانيا إلى الحياد أو إلى صداقتها أو صداقة حليفها الشريف حسين. ولو أننا نلمس من الناحية الأخرى جهداً مقابلاً للعثمانيين يحاول المحافظة على ولاء الأولياء، أو استنقاذهم من تأثير الاغراء البريطاني، وفي كل هذا كان - كما هو العادة في العالم التحتي للسياسة والدبلوماسية - للأصفر الرنان دوره المؤثر والخطير.

بعد تقاريره الوافية عن الشخصيات، يتطرق الكاتب للحديث عن الحج وارتباطاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وحديثه عن الحج حديث من الخارج أكثر مما هو حديث من الداخل، ان صح القول. فموقفه عن الحج، هذه الشعيرة المقدسة، موقف الناقد، إن لم نقل المتحامل، أكثر من المتعاطف. ولعله لا يرى في الحج إلا موسماً يبتز منه أهل الحجاز ضيوفهم من الحجيج، كما أن القبائل كثيراً ما غزت الحجيج، فغررت بهم أو نكلت بهم تنكيلاً وسلبتهم وأهلكت الأرواح أو الأموال. وما موسم الحج في نظر الكاتب إلا موسم الأوبئة والطواعين. يقول: «غالب الأمر، فإن الوباء أو العدوى تتولد من عفونة الأضحيات في منى، أو أنها تنجم عن مياه زمزم المقدسة، وغير الصحية، أو يجلبها دنس وقذارة قناة مكة الرئيسية، وذلك من خلال ألوف الحجاج الذين يكونون قد استحموا بهذه القناة في يوم عرفه». والحاج في نظره انسان بائس تهزم نشوته الروحية وسط تلك الأمراض البدنية القاتلة، والتي لا تمهله من أمره، وتقضي عليه وهو في نشوته فلا يعود إلى أهله بل يهلك على الطريق وسط عطر الروح الذي يتضوع. «والحاج الذي في غالب أمره يطعم في طريق عودته - جزيرة كرانه أو في الطور أو أية محطة برية - غالباً ما يلاقي حتفه وهو يتضمخ بعطر قداسته قبل أن يصل إلى بلده!».

ويختتم الكاتب كتابه بفهرست لعله من احدى النواحي المنيرة فيه من ناحية عملية. وهو يبين بصورة تفصيلية الطرق المختلفة في الحجاز ويتحدث عن الطرق الرئيسية التي تصل بين المدن الرئيسية والفرعية وتفرعات هذه الطرق وما يكتنفها من محطات ومعالم رئيسية، من تضاريس ومياه وغيرها، وما يصيبها من تغير. ويتحدث عنها حديثاً دقيقاً

يفيد الرحالة فائدة جليلة، ويمكن الافادة منه لأغراض استراتيجية وعسكرية. فضلاً عن كونه مادة جغرافية جيدة.

ومهما يكن من أمر فإن حديث المؤلف عن موضوعات كتابه المختلفة، لا يزيد عن غيره من كتب الرحالة، والتي تحاول أن تضع صورة الشرقي أو العربي مقابل صورة الغربي، أو لعله على الأصح رسم صورة Image للعرب من خلال ريشة أوروبية. وهنا تبدو الصورة العربية صورة معاكسة للصورة الغربية، ومن هذا التناقض في الصورتين تبدو في صورة العربي معالم التخلف وانعدام الضوابط القانونية، وسيطرة العدوان والسلب والنهب، وتبدو هذه المعالم واضحة عندما يتحدث عن شريحة أساسية في الجزيرة العربية هي البدو. كما أن هذه النظرة لا تبرأ مما يظهر أيضاً به الرجل الغربي السوبرمان لقوم من المتخلفين البرابرة!

ثم أن هذا الكتاب الذي كتب أصلاً بهدف سياسي - كما ذكرنا - لم يتح له أن يتحدث عن القضايا المختلفة من وجهة نظر عريضة، بل تحددت منطلقاته، واقتصرت على ما هو لصيق فقط بخدمة الاتجاه السياسي والتخطيط الاستراتيجي للاستعمار البريطاني. ومن هنا فإن الكتاب - على غزارة ما فيه من معلومات مفيدة وأحياناً شيقة - ينقصه الكثير من الموضوعية التي تفترضها طبيعة البحث العلمي المتكامل والمنهجية العلمية التي تدعو إلى قول الحقيقة جيمعها والتجرد في دراسة الموضوع المدروس. ولعل في هذا تفسير لكون كثير من الموضوعات جاءت مبتورة، يسودها طابع التقرير السريع، أكثر من طابع الدراسة الوافية الكافية المستأنية. كما بدا هذا في دراسة الحدود والموقع والمناخ، يمسها مساً خفيفاً، بدلاً من أن تأخذ ما تستحقه من اهتمام واستفاضة. وعلى أية حال فإن هذا الكتاب ان افتقد في عرضه واسلوبه القيمة الموضوعية والشمولية اللازمة، فإنه لم يفتقد القيمة العلمية كمادة مصدرية أساسية ذات طابع وثائقي. ومن هنا فإنه لا غنى عنه لأي باحث عن فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولعل هذا الكتاب من أولى ما كتب حول الحجاز عن تلك الفترة الحاسمة التي أصبحت فيها مكة وشريفها الحسين مهوى أفئدة العرب في كل مكان، وكان للشريف وأبناؤه دور تاريخي لا ينكر، ولم يقتصر أثره على الحجاز فقط وانما شمل سائر بلاد العرب في الهلال الخصيب: العراق وبلاد الشام. حقاً ان ما تم في الحجاز كان له نتائج مأساوية على الأمة العربية فيما تلا هذه الحقبة من عقود خضعت فيه لحروب الاستعمار الانجليزي والفرنسي والصهيوني، ولكن مع ذلك فإننا لانملك إلا أن ندرس هذه الفترة من مصادرها الأولية حتى يتاح لنا تقويمها والافادة منها في حاضرنا ومسبقبلنا. وفي هذا الكتاب فائدة لا شك فيها في هذا المجال لمن أراد.

٨ سنة على موقعة حطين

اجتمع مؤخراً في دولة الامارات العربية المتحدة، مؤتمر للمؤرخين العرب للبحث في احياء ذكرى معركة حطين، هذه المعركة العظيمة التي يحلول العام الحالي سيكون قد مضى عليها ثمانية قرون.. فقد وقعت في عام ١١٨٧م.. وقد انعقد هذا المؤتمر، تجاوباً مع توجه عالمي للاحتفاء بهذه الموقعة، من خلال كتابة البحوث والدراسات حولها، والتي ينبغي أن تليق بمكانتها التاريخية والعالمية.. وفي هذه السنة الحالية يكون قد مضى على ثورة فلسطين الكبرى، ثورة ١٩٣٦، خمسون عاماً أيضاً.. وتستعد الدوائر العلمية في الأوساط الفلسطينية لاحياء ذكرة مرور نصف قرن على هذه الثورة العظيمة.. بكتابة الدراسات واقامة الندوات والمؤتمرات العلمية. والتي تليق أيضاً بهذه المناسبة الجليلة.. ويطيب لنا في هذا المقال أن نعرف بهاتين المناسبتين.. تعريفاً موجزاً. ونقدم بين يدي الاحتفاء والاحتفال بهما.. بهذه المقدمة:

موقعة حطين

أما موقعة حطين، فأول ما ينبغي أن يقال عنها، أنها موقعة فاصلة من مواقع التاريخ العالمي الكبرى، وقعت على أرض فلسطين.. وعلى أرض قرون حطين من شمال فلسطين الشرقي، بالذات، مكان القرية التي ظلت معروفة بهذا الاسم، إلى وقت قريب حتى أزالها الاسرائيليون الصهاينة من الوجود، وأصبحت أثراً بعد عين، بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨.

وعلى أية حال، فقد انتهت موقعة حطين بفوز ساحق للمسلمين على الفرنج، واستعاد المسلمون بعدها، بيت المقدس، بعد أن خضعت لهؤلاء الفرنج الصليبيين مائة عام.

وتستوقف هذه الموقعة الباحث أو الدارس من جوانب عدة، وأبعاد مختلفة:

● فمن الناحية الأكاديمية، فإن الروايات حولها متعددة، بين روايات عربية أو اسلامية سجلت من وجهة نظر عربية اسلامية ولم تكن دائماً متفقة، وبين روايات افرنجية سجلت من وجهة نظر غربية، وهنا أيضاً اختلاف كبير، بحسب الفرق والميول، والتوجهات والقناعات، وبحسب موقع الرواية زمنياً، قبل أو بعد المعركة. فخسران هذه

المعركة من قبل الفرنج، جعل كثيراً من المؤرخين يلقون باللائمة في خسرانها على عناصر معينة من الفرنجة أو على ظروف معينة. ولم يخل هذا اللوم من بعض التحامل.. ومحاولة لي الحقائق لتناسب توجها معيناً.. أمر ينبغي أن يحذر منه دارس الروايات التاريخية ولذلك فلا بد له أن يمحص الرواية تمحيصاً ويسلط عليها ما يعرف في عالم التأريخ أدوات النقد الداخلي للنص...

على هذا فإذا أخذنا هذه الروايات المتضاربة، مرات كثيرة، على جبهتي التأريخ العربية والفرنجية بعين الاعتبار والتدقيق والتحقيق.. فإنه سيكون لدينا هامش عريض للبحث في هذه الموقعة التي اصطدم فيه صداماً فاصلاً كل من الشرق والغرب.. ووقفوا أمام لحظة تاريخية كبيرة، ترتب عليها فيما بعد تحول عظيم في أوضاع المنطقة وتهدمت المؤسسة العسكرية السياسية الغربية الغازية، على الأرض العربية وإلى فترة طويلة.

● أما من الناحية العسكرية أو الحربية (وهي تخضع أيضاً للبحث الأكاديمي)، فإن الدارس لهذه الموقعة يمكنه ابراز الأبعاد والقضايا التالية، أو على الأصح، وضعها تحت الأضواء الكاشفة، ذلك أنها قضايا لا تزال تتسع لمزيد من البحث والتعمق والاستقصاء والاضافة:

فعلى سبيل المثال، يمكننا القول أن النصر في هذه المعركة، لم يكن سهلاً، ولم يأت سهواً رهواً – كما يقال – وانما جاء نتيجة تخطيط مركز، واستراتيجية وتكتيك دقيقين، من قبل صلاح الدين وأركان حربه، الذين أبدوا من البراعة العسكرية في هذه الموقعة، ما هو جدير بالمكانة التي احتلتها في التاريخين العسكري والسياسي. فصلاح الدين الذي هو من أمة، للعقل فيها دور عظيم، وفيها دائماً «الرأي قبل شجاعة الشجعان»، جعل هذا العقل يأتي بدور باهر، وبنتائج عظيمة خالدة، فهو قد جعل الماء – بحيرة طبرية – خلفه، وبذلك حرم الفرنجة الذين كان فرسانهم لا يحملون الماء معهم، من الوصول إلى الماء، فسميت المعركة بمعركة الماء. ومن ثم، وحتى يزيد الوضع تأزماً بالنسبة للعدو، فإنه عندما احتدمت المعركة، في ذلك الوقت القائظ من أشهر الصيف في فلسطين، أمر باشعال النار، أو كما يقول المؤرخون العرب «رمى النار في الأعشاب»، مما جعل كثيراً من الجنود يشعرون بالضيق إلى درجة الاختناق أو الشلل شبه الكامل، وعدم المقدرة على الاستمرار في القتال.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان الفضل لصلاح الدين، في أن يجعل الحرب مع الفرنجة

على أرض فلسطين، حرب مجابهة ومواجهة مباشرة، وليست حرب عصابات، حرب «اضرب واهرب» كما يقال في قاموس الاستراتيجية العسكرية الحديثة، فعل صلاح الدين ذلك، على ما في هذه المجابهة من مجازفة محسوبة، وهذا أمر ذكره المؤرخون. يقول ابن الاثير: «لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صفورية، وجمع صلاح الدين أمراءه، واستشارهم، فأشار أكثرهم بترك اللقاء، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات، وتخريب الولايات مرة بعد مرة. وقال له بعض أمرائه: الرأي عندنا أن نجوس بلادهم ونخرب ونحرق ونسبي، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه. فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور تجري بحكم الانسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد».

كما أن صلاح الدين هو الذي وظف جهود المتطوعة، أو الميليشيا بالتعبير الحديث، وهم المقاتلون من أهل البلاد الأصليين، الذين تركوا حقولهم والتحقوا بجيش صلاح الدين. وكان لهم دور كبير في القتال أشاد به المؤرخون من مثل ابن القلانسي صاحب تاريخ «ذيل تاريخ ابن عساكر» عن دمشق..

أما على جبهة الفرنج، فالاستقصاءات المبدأية تدل على ما يلي:

- أنه كان اختلاف بين قادة الفرنج على استراتيجية المعركة.. فبينما آثر البعض عدم التحرك من المعسكر الرئيسي في صفورية، قريباً من الناصرة الحالية، وحيث هم في موقع حصين، إلى ملاقاة صلاح الدين، في حطين، فإن البعض الآخر وجه اللوم أيضاً إلى غاي، ملك بيت المقدس، والقائد العام، لقبوله بنصب خيام الجند في لوبيه، على الطريق بين صفورية إلى طبرية، حيث وضع نفسه في مكان لا يحسد عليه: فقد جعل نفسه هدفاً سهلاً لصلاح الدين، وسط الحرمان من الماء الذي لا يصل إليه في طبرية، وحيث ضربات «الجنرال مناخ» - كما وصفه نابليون - الذي سلط عليه سلاح الحر الشديد.. مضافاً إلى العطش الشديد! ويؤثر عن ريموند، صاحب طبرية عندما شاهد الجيش الصليبي يضع أثقاله في لوبيه، ذلك الموقع الحرج على خريطة المعركة بعيداً عن البحر والبحيرة، أنه صاح: «واحسرتاه! واحسرتاه! يا الهي انتهت الحرب، لقد خانونا ودمرت الديار!».

- أنه على العكس مما قد يتبادر إلى الذهن، أن الفرنج عند أول وهلة ولوا الادبار! بالنظر للظروف الصعبة التي وجدوا انفسهم تحت وطأتها، على العكس من ذلك فإن هؤلاء

الفرنج كانوا جيشاً من الشجعان قاتلوا باستبسال شديد، وظلوا يقاتلون إلى آخر لحظة. ويروي ابن صلاح الدين، الذي شهد المعركة، كيف أن الحرب كانت سجالاً، وأنها حتى اللحظات الاخيرة منها، ظلت تراوح بين مد وجزر لكلا الطرفين المقاتلين.

فهو يقول: «حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال فنظرت إليه، وقد علته الكآبة، واربد لونه، وأمسك بلحيته، وهو يصيح كذب الشيطان! قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا على التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم! فعاد الفرنجة فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي» ويبدو أن هذه المعركة استمرت على هذه الحالة فترة غير قصيرة حتى حسمت لصالح المسلمين.. فابن صلاح الدين يتم روايته بقوله: «وقال (اي صلاح الدين) اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد وشكر لله تعالى، فبكى من فرحه».

ويعقب الدكتور سهيل زكار، الذي درس موقعة حطين في كتاب كامل، على أخلاق فرسان الفرنجة وسيكولوجيتهم بقوله: «سهولة في الاثارة، اندفاع شديد أحمق، واصرار لا تراجع فيه، ولا مبالاة بالموت».

● شخصية صلاح الدين: هذا ما كان من شأن البعد الفني أو البعد العسكري للموقعة، ولكن يظل هناك جانب آخر ذو علاقة بهذا البعد العسكري لا بد من ابرازه، ألا وهو شخصية صلاح كقائد: ان صلاح الدين لم يكن مقاتلاً عادياً أو أنه محارب من أجل الحرب، بمقدار ما كان بطلاً من أبطال التحرير.. انساناً كبير الانسانية.. نذر وقته منذ وقت مبكر لانقاذ الأرض المقدسة، مما وقع عليها من غزو، وأكمل بهذا مخططاً بدأه من قبله نور الدين الشهيد، الذي جعل تحرير الساحل - أرض فلسطين - وبيت المقدس والمسجد الأقصى بصورة خاصة، هدفه الأول أو الأسمى، وأعد من أجل ذلك محرابه الشهير، الذي احرقه أخيراً اليهود الصهاينة، ربما لما يحمل من مغزى ومعنى في التحرير أو الخلاص! غاية الأمر أن القدس بالنسبة لصلاح الدين كانت هي الهدف، وحرب المجابهة، ولم تكن إلا من أجل هذه الغاية العظمى، والتي تحققت بعد هذه الموقعة العظيمة...

وجدير بالذكر هنا أن صلاح الدين لم يحقق انجازه الأعظم في استرجاع بيت

المقدس، ورد الاعتبار للانسان العربي.. ووضع الأمور في وضعها الصحيح.. وتوقيف التاريخ على قدميه، بعد أن كان يقف على رأسه! إلا بعد تحقيق الوحدة العربية الاسلامية على أرض الواقع أيضاً. فقد وحد صلاح الدين مصر، قاعدته المكينة التي انطلق منها، بما تملك من عبقرية الموضع والموقع، وبما لديها من أموال جسيمة وطاقة بشرية كبيرة، وبما أتيح لصلاح الدين من وقت كاف لتدريب قواته في قلعتها، نقول: وحد صلاح الدين مصر القاعدة الاستراتيجية العظيمة هذه، مع سوريا (دمشق وحلب والجزيرة) ومع العراق (الموصل) واليمن وليبيا: يعنى بايجاز جعل الدائرة المركزية لعالم العرب والاسلام تحت يديه.

على هذا، فنحن إذا أردنا اعادة صنع التحرير في حطين أخرى فلا بد لنا من مثل هذه الوحدة، يقول المرحوم الأستاذ الشقيري.. ومن القلب.. بعد أن جرب النضال في فلسطين وعلى كل المنابر العربية والدولية ما لا يقل عن خمسين عاماً:

«ولكن الأمة العربية، التي تجمعت جيوشها حول حطين في عام ١١٨٧، سوف تتجمع، لا محالة، مرة، لتحرير فلسطين في معركة حطين الثانية.

سيحتفل أبناؤنا وأحفادنا، بذكرى حطين الأولى والثانية، سيحتفلون بالذكرى إلى أجل لا يفنى. وسيقبلون الثرى إلى زمن لا يبلى.

ونحن جيلنا الذي يدفن بعيداً عن مراقد الآباء والأجداد، سنكون معهم نمجد الذكرى ونقبل الثرى بأرواحنا وأفئدتنا وتلك غاية المنى.

يا رب حقق هاتيك المنى بعد الوفاة إذا لم نبلغها في الحياة!».

يظل أن نسجل لهذه الموقعة، أنها مع فتح بيت المقدس، ومع ما أظهره صلاح الدين فيها، من روح عالية من التسامح الديني العظيم، أن أخذت شخصيته، وبخاصة في الغرب بعداً شبه اسطوري! حتى لقد اعتبره البعض أشهر شخصية في تاريخ العالم! وصلاح الدين، هو بحق شخصية ذات بعد انساني كبير.. ولا أخال أن الدراسات التي جرت عن هذه الموقعة، إلا معززة هذا التوجه في تقييم صلاح الدين وتثمين دوره التاريخي. والذي يجب أن يكون قدوة لكل مقاتل في كل زمان ومكان.. فهنا نجد أنه بينما كان هناك بشر من بني البشر خلدهم أو سيخدلهم التاريخ كأعداء من أعداء الانسانية مثل نيرون وجنكيز خان وتيمورلنك وهتلر وفرانكو وشارون وغيرهم، فإن

صلاح الدين سيوضع بين قائمة أصدقاء الانسانية، من الفرسان الشجعان،ذوي القامات الأخلاقية العالية، في مركز الصدارة..

وما أحوج الانسانية في زماننا هذا إلى مثل هذه الشخصية، تنير لها السبيل، وتُصب على نيران التعصب والتزمت وضيق الأفق المتأججة برد السلام واليقين والحب والخير والجمال...

ثورة فلسطين الكبرى

وهذه صفحة أخرى، من صفحات النضال في تاريخ هذا البلد، المقاتل، عبر تاريخه الطويل، وهنا انما كان هذا النضال ضد الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني. وتستوقفنا هذه الثورة من جوانب متعددة نوجز بعضها فيما يأتي:

● أنها كانت ثورة الشجاعة الفذة الباهرة والاستبسال العظيم، فأمام دبابات البريطانيين وأسلحتهم الحديثة صمد شعب صغير، قريب عهد بالخروج من العصور الوسطى، يقاتل بالبنادق القديمة (الصميلة)، وأبدى من ضروب البطولة ماجعل المؤرخ البريطاني، يشبه هذه الثورة، بمسرحية عظيمة! جرت أحداثها ساعة من الزمن، ببطولة بارعة! وأبدى الشعب فيها استبسالاً خالداً، ثم ومرة واحدة! أسدل الستار على هذه المسرحية! وإلى الابد! ولم يعد أحد يعرف ما جرى على وجه التحديد.

وحقيقة الأمر أنه إذا كانت الأضواء قد سلطت على موقعة حطين، وحظيت من علم التاريخ بحظ ليس بقليل، فإن الثورة الفلسطينية حرمت من هذا التاريخ، وعلمه، الا النزر اليسير. ولعل هناك عملية تعمية مقصودة على هذه الثورة، وغيرها من الثورات والانتفاضات، لحرمان الفلسطينيين من تسجيل صفحة باهرة كانت لهم، حتى لا تكون منبع حفز وتحريض لهم للسر على نفس الطريق، طريق النضال والاستشهاد، لتحقيق أهدافهم النبيلة في التحرير والاستقلال وتحقيق المصير.

ومهما يكن، فإنه يمكننا تجميع الخيوط التالية أو النقاط الرئيسية في محاولة لالقاء بعض الأضواء على هذه الثورة، لعلها، تكون دافعاً للأجيال الحالية واللاحقة من المؤرخين العرب ومؤرخي العالم، لاعطاء هذه الثورة ما تستحق من البحث والدراسة.

● أنها كانت معركة الوحدة الوطنية.. فما أن قام الاضراب، حتى تجمعت الأحزاب والفئات الفلسطينية، تحت راية اللجنة العربية العليا – القيادة الفلسطينية العامة

أنذاك - بزعامة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني. وارتكزت هذه اللجنة على لجان أخرى سميت باللجان القومية، انتشرت في طول البلاد وعرضها، وتمكنت من تحشيد الشعب بكافة اجنحته ومواقعه في القرى والمدن.. والجبال والسهول والبادية.. في معركتهم الواحدة ضد الانتداب والصهيونية.

● ان هذه الثورة، بعكس ما قد يفكر البعض، لم تكن وليدة العفوية، بل كانت وليدة فكر ثوري متقدم، نابع من الصوفية الوطنية والظروف الخاصة بالقضية الفلسطينية باعتبارها قضية شعب تعرض لغزو استعماري شرس يريد اقتلاعه من أرضه وتشريده في بقاع الأرض بدون ذنب جناه! بعد أن عاش على أرض فلسطين ما يقرب من سبعة آلاف عام! هذا الفكر يمكن استنتاجه من الاطلاع على التقارير التي كتبت عن المجاهدين الفلسطينيين في هذه الثورة والموجودة في الوثائق التي تحتوي عليها سجلات مركز الشرق الأوسط - في جامعة اكسفورد - كما هو مركز السجلات العامة البريطانية في لندن.. وقد تمكن كاتب هذه السطور من الاطلاع على عدد كبير من هذه التقارير وخرج منها بالنتائج التالية:

● أنها ثورة تتوفر لها الأصالة المتوفرة في كل الثورات الشعبية في التاريخ.. وهي ليست كما يحاول اعداؤنا أن يصفوها.. بأنها لم تزد عن كونها «اضطرابات» أو أنها «رد فعل بربري على حضارة السوبرمان الاوروبي» كما يحاول وايزمن أن يقول: أو أنها في أحسن الحالات لم تكن سوى «تعبير عن الغضب» كما ينعتها لوكاس مؤلف كتاب (تاريخ اسرائيل الحديث).

● ومن هذا المنطلق في الأصالة فإننا نجد انها ثورة ذات أبعاد.. وأعماق أيديولوجية.. أو على الأقل ذات قاعدة نظرية.. فهي ليست اندفاعاً غوغائياً.. أو انتفاضة عمياء.. وهذا التوجه الأيديولوجي لم يكن نتاج فيلسوف معين، فكما هو معروف فإن الثقافة الفلسطينية ثقافة مقاتلة.. لم يتح لها الوقت الكافي للتنظير والفلسفة - أو منظر متخصص، بل هي وليدة الحدس السلمي والفطرة القديمة.. فهنالك قناعات متعددة تكشفها الوثائق: لحمة هذه القناعات وعمودها الفقري هو الصوفية الوطنية والجذورة القومية المقدسة، كما سبق الاشارة. وقد ترجمت هذه القناعات إلى واقع مؤداه أنه لا بد من استخدام القوة والقوة فقط في تحقيق خلاص الحق المغتصب.. ومن هنا تفجرت براكين الثورة!.

● كما أن هنالك منطقاً آخر.. في الأصالة لهذه الثورة تكشفه هذه التقارير ألا أنه لا

يزال ينتظر مزيداً من البحث والاستقصاء والاحتفاء بذكرى مرور خمسين عاماً على هذه الثورة جدير بتوجيه الأذهان إليه، ألا وهو التوجه الفكري، الذي تحدده قناعة عميقة بمحاربة الاستعمار باعتبار أنه أساس المشكلة.. وأن الصهيونية بالنسبة للاستعمار ليست سوى النتيجة للمقدمة أو المد الثاني للمعادلة.. وعلى هذا فإنه إذا أردنا أن نقضي على الخطر الصهيوني.. فلا بد أن نفتش عن الاستعمار المختبيء وراءه! أو كما عبر عنه أحد خطباء الثورة في فلسطين عندما سئل أيهما نقاتل أولاً: الصهيونية أو الاستعمار، فرد قائلاً:

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها

إن كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا!

لقد جاء وقت على بعض رجال السياسة في فلسطين غاب عنهم، أو أنهم تجاهلوا متعمدين، محاربة الانكليز من أجل التفرغ للصهاينة، فجاءت ثورة فلسطين الكبرى، لتضع الأمور في اطارها الصحيح. وتنبه الأذهان إلى الخطر الرئيسي. وطرح شعار هذه الفترة: الاستعمار أساس الداء ورأس البلاء!

من هنا فقد توجه المناضلون إلى الجبال.. حاملين السلاح ليقاتلوا هذا الاستعمار.. بكل ما أوتوا من قوة.

★ ★ ★

وبعد فإنني لست من القائلين بأن التاريخ يكرر نفسه، فهذه مقولة يرفضها كثير من المؤرخين.. ولكنني أؤمن بالتاريخ الحافز.. التاريخ الموحي.. ولعل في دراسة هذين الحدثين العظيمين في تاريخنا الوسيط والحديث، والذين جرت أحداثهما على جبهة المواجهة والتحدي الأساسية، مع القوى الخاريجية، على أرض فلسطين، ما يشكل حافزاً عظيماً لنا، لكي نستعيد معاني الثقة بانفسنا، ونستكشف بعضاً من معالم أصالتنا ومقومات شخصيتنا، وجوانب عبقريتنا التي تكاد تطمسها مجريات الأحداث الراهنة ، فلا تكاد تبين!! كما أن هذه الدراسة ستجعلنا إذا نحن أوليناها حقها من العناية.. ستجعلنا نستكشف الكنوز الانسانية في شخصيات القادة العظام في تاريخنا، ونفيد من تجاربهم العسكرية والسياسية.

من هنا فلا بد أن نولي هاتين المناسبتين ما يستحقانه من التأريخ.. والقراءة..

والتأمل.. وأكثر من هذا الانطلاق فهما إلى العمل! فأمامنا لا يزال الكثير.. والتاريخ لا يزال يكتب.. وهو لم يتوقف ولن يتوقف..وبإمكاننا كما صنعناه بالأمس، أن نصنعه اليوم وغداً! فهل يمكن أن نضيف إليه صفحات مشرقة مجيدة كما أضيف من قبل في حطين وثورة ١٩٣٦ على أرض فلسطين.. ان فلسطين الذبيحة.. لا تزال تستصرخنا كل يوم.. وصباح مساء!! ولعل فيما نقول: لا تكتفوا باحياء ذكرى حطين واليرموك والقادسية وأجنادين وعين جالوت أكاديمياً فقط! فلعلنا نصيخ السمع لهذا الصوت.. ونفعل بما يقوله لنا.

المجاهد العلامة.. محمد عزة دروزه

الاستاذ الكبير محمد عزة دروزة، الذي توفي في دمشق، فانضم إلى قافلة الخالدين، مجاهد فلسطيني، وعلم من أعلام العروبة والاسلام.

وهذه كلمات قليلة نقدمها بين يدي هذا الراحل العظيم، تعريفاً موجزاً وسريعاً، لهذه الشخصية، واعترافاً متواضعاً بدورها العظيم.. محمد عزة دروزة ابن نابلس، ولد في قصبتها «الحي القديم» عام ١٨٨٧م/١٣٠٥. ومن جبلها الأشم «جبل النار» اقتبس لهيب الثورة التي اعتملت في كيانه، وسيطرت على بؤرة شعوره طوال حياته. وسجل في ميدانها فصولاً وفصولاً باهرات، منها، أن بريطانيا في عام ١٩٣٧، وكانت تمارس مع الثوار الفلسطينيين قمعاً وحشياً، أهدرت دمه، واعتبرته «الشرير الأكبر» ونسبت إليه أنه الدينامو المحرك والقلب النابض وراء قوافل المجاهدين، التي كانت تغادر دمشق لتضرب في عمق فلسطين وبالفعل فقد كان دروزة كذلك! ولكنه ليس شريراً أكبر.. وانما هو مجاهد أكبر! ففي هذه الفترة كان عزة دروزة بما لديه من مقدرة كبيرة على التنظيم، والتركيز، وبما رزق من رغبة في العمل المثمر الدؤوب والجهد الصامت، يحشد وينظم ويزود قوافل المجاهدين بالسلاح، حيث عمل سكرتيراً للجنة الفلسطينية العليا للثورة في دمشق، نائباً عن مفتي فلسطين الذي كان قد أبعدته السلطات البريطانية من القدس إلى بيروت في لبنان.

كيف وصل محمد عزة دروزة إلى دمشق، هانوي العرب والفلسطينيين في تلك الفترة؟ هذه قصة طويلة .. ستجعلنا - وبايجاز أيضاً - نعود إلى الوراء مع هذه الشخصية نتابع في لمسات، سريعة، بعضاً من جهادها ومواقفها:

ما بين أيدينا من مادة مصدرية يقول أن عزة دروزة يعود أصوله، كالغالبية العظمي، من أهل فلسطين إلى أصل عربي، وأنه منذ نعومة أظفاره أدركته حرفة السياسة والعمل الوطني. فنهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، كانت فترة بداية اليقظة العربية والعثمانية، فهنا نجد الأستاذ دروزة ينتمي إلى جماعة الأتحاد والترقي في عام ١٩٠٨، حتى إذا تكشفت له نزعتها الطورانية وشوفينيتها البغيضة تخلى عنها، وانضم إلى حزب الائتلاف والحرية، وعمل سكرتيراً لفرعه في مدينة نابلس. وسترافقه صفة العمل كسكرتير - أي أمين - طوال حياته النضالية، في كل مؤسسة، وحركة وطنية ومؤتمر

وحزب.. وهنا نجد أنه عمل عضواً في حركة المطالبة الاصلاحية ببيروت ١٩١٢، وفي حركة المؤتمر العربي بباريس ١٩١٣، حيث انضم إلى الجميعة العربية الفتاة التي كان سكرتيرها ، ابن بلده، الأستاذ عوني عبد الهادي. وعلى صعيد العربية الفتاة التقى بشكري القوتلي وشكري الأيوبي والدكتور أحمد قدري، ولحق معهم بجيش الملك فيصل بن الحسين الذي دخل دمشق ١٩١٨ وأقام الدولة العربية، التي كان قد قادها الشريف حسين مع طليعة من المناضلين العرب من بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية.

وتحدثنا المصادر أيضاً أن عزة دروزة عاد إلى فلسطين، حيث انعقد بحضوره أول مؤتمر فلسطيني في العصر الحديث عام ١٩١٩، وكان للعروبيين فيه، أي ذوي التوجه العربي، بزعامة محمد أمين الحسيني الدور الأكبر والتأثير الأهم والأبرز، فقد قرر هذا المؤتمر أن فلسطين عربية، وأنها جزء من سوريا الكبرى وتنتسب إلى الثورة العربية.

وعلى الأثر ذهب دروزة، ونخبة من القيادة الفلسطينية إلى سوريا، لاحقاً بفيصل، وحيث انعقد المؤتمر السوري الأول سنة ١٩١٩. والتقى دروزة برفاقه في النضال من أعضاء جميعة العربية الفتاة.. حيث رفضت مع المؤتمر السوري معاهدة فيصل كليمنصو التي قصدت إلى فرض نوع من الهيمنة الفرنسية على السوريين، بعد أن تخلت بريطانيا عن حليفها فيصل، وتركته يقع فريسة سهلة للجشع الاستعماري الفرنسي. وفي المؤتمر السوري الثاني ١٩٢٠، الذي اختار عزة دروزة سكرتيراً له، تقرر اعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية، ورفض وعد بلفور والهجرة اليهودية وكل شكل من أشكال الانتداب.

حتى إذا سقط العهد الفيصلي في سوريا على يد الفرنسيين بعد معركة ميسلون الخالدة، واستشهاد البطل يوسف العظمة في تموز ١٩٢٠، أصدرت السلطات الفرنسية حكماً بالاعدام على عزة دروزة فعاد إلى فلسطين حيث جعل مهمته مقاومة الاحتلال الانكليزي والخطط الصهيونية، وهنا عمل سكرتيراً للجمعية الاسلامية المسيحية في نابلس، التي كانت بفروعها على مستوى الوطن بمثابة الحزب الوطني الفلسطيني الواحد الذي أفرزته التحديات الانكلو صهيونية.. وعد بلفور وقدوم اللجنة الصهيونية بزعامة وايزمن مؤذنة ببداية عهد جديد للاستعمار الاستيطاني..

ولقد شهد دروزة كل المؤتمرات الفلسطينية في الثلث الأول من عشرينات هذا القرن، كما أنه عمل أيضاً مديراً لمدرسة النجاح التي كانت مركزاً مهما من مراكز الوطنية الفلسطينية والقومية العربية.. وكان زميله فيها الأستاذ أكرم زعيتر.

على أن قمة من قمم نضال عزة دروزة كانت انشاء حزب الاستقلال مع صفوة من رواد القومية العربية، على مستوى فلسطين والبلاد العربية.. مثل نبيه العظمة من سوريا، وعجاج نويهض من لبنان، وعوني عبد الهادي وأكرم زعيتر، وفهمي العبوشي من فلسطين. ولعل هذا الحزب، الذي هو ترجمه أمينة وصادقة لمبادئ العربية الفتاة وحزب الاستقلال في سوريا في العهد الفيصلي، في الدعوة إلى الوحدة والحرية والاستقلال، وصبغ الوطن العربي بالصبغة العربية إلى درجة توحيد العملة وطوابع البريد ولباس الرأس في جميع أرجائه. نقول لعل هذا الحزب من أكثر الأحزاب في التاريخ العربي الحديث أصالة وتميزاً، وفكراً رائداً. وعلى المستوى الفلسطيني أكثرها راديكالية وديناميكية، حتى أن الانكليز نسبوه وهو الحزب القومي من الرأس إلى القدم، نسبوه إلى اليسار..

آية ذلك أن هذا الحزب، هو الذي دعا إلى عدم التمييز بين الخطرين الانكليزي والصهيوني، وطرح شعار الانكليز رأس الداء وأساس البلاء، وكان عزة دروزة هو الذي نبه الزعامة الفلسطينية إلى خطر ما سماه «الوطنية الخنثى» تلك الوطنية التي تقبل بالتعاون مع الاستعمار البريطاني، حين تحتوي بمخططاته وتقبل وظائفه، ولكنها، في الوقت نفسه ترفض الخطر الصهيوني.. تماماً كما لا نستطيع الآن أن نفصل بين الامبريالية الامريكية، ورأس حربتها اسرائيل.

ومن هنا أيضاً كان طرح شعار عدم التعاون مع الانكليز الذي أفرز انتفاضة يافا العظيمة سنة ١٩٣٣، عندما قامت القيادة الفلسطينية بالتظاهر العنيف، ضد الانكليز، وحشدت القوى الوطنية نفسها في يافا في مجابهة مع الانكليز، حتى أصبحت يافا ساحة حرب حقيقية، كما يقول دروزة نفسه، الذي شارك في هذه المظاهرة المعركة وشج فيها رأسه.

وتتوالى الأحداث ويكون الاضراب الكبير سنة ١٩٣٦، ويتولى عزة دروزة الدعوة إلى توحيد القيادة الفلسطينية في اللجنة العربية العليا التي ضمت زعماء الاحزاب الفلسطينية الستة. وانضم إليها فيما بعد، وبعد اعتقال عوني عبد الهادي، مندوب حزب الاستقلال فيها، عزة دروزة، ممثلاً ومندوباً عن هذا الحزب.

حتى إذا انتهت ثورة ١٩٣٦، بدون حل للمشكلة الفلسطينية، ولم تمت الثورة، بل بقيت السيوف في أغمادها، وقررت السلطات البريطانية ارسال لجنة بيل التي قررت تقسيم فلسطين، نشط دروزة كأقوى ما يكون في مقاومة التقسيم، وشارك في وفد إلى

البلاد العربية، ليبين محاذير قدوم لجنة بيل، وكان تتويج نشاطه في هذه الفترة حضور مؤتمر بلودان في سوريا ١٩٣٧، هذا المؤتمر الذي أطلق رصاصة الرحمة على مشروع التقسيم مما اضطر بريطانيا إلى سحبه.

ومهما يكن، فإن المشكلة الفلسطينية لم تحسم وكان لا بد من العودة إلى السلاح من جديد. وهنا اضطرت القيادة الوطنية الفلسطينية إلى مغادرة أرضها، ونقل مركز ثقل نضالها إلى سوريا ولبنان، مفيدة من التناقض الفرنسي الانكليزي.. وفي دمشق مارس عزة دروزة دوره في الاشراف على الثورة وتعزيزها في فلسطين في صفحات مشرقة وبطولات كبيرة اضطرت رئيس البوليس البريطاني في فلسطين أن يقيم الأسلاك الشائكة على الحدود السورية اللبنانية / الفلسطينية وأن يأتي بنفسه إلى بيروت ودمشق يريد أن يقتل الثورة في قاعدتها ومهدها.. أو أن يقطع رأس الأفعى كما قال الانكليز أنذاك وهو ما يقول الاسرائيليون عن منظمة التحرير في هذه الأيام.

وتندرج الأيام.. ويستسلم الانكليز للعنف الخلاق الذي لا علاج غيره.. وينعقد مؤتمر المائدة المستديرة ١٩٣٩، الذي وعد الفلسطينيين بدولة على كامل التراب الفلسطيني يتشارك فيها العرب والانكليز واليهود وتصل بعد عشر سنوات إلى الاستقلال.

على أن الحرب العالمية الثانية لم تلبث أن هبت رياحها، وتغيرت السياسة الفرنسية نحو المناضلين العرب في سوريا، وحكمت على عزة دروزة ورفاقه من دعاة القومية العربية من حزب الاستقلال، مثل نبيه العظمة بالسجن في سجن المزة، حتى إذا أرسل المجاهد الفلسطيني محمد علي الطاهر من القاهرة، برسالة إلى الجنرال فيجان يعترض على حبس عزة دروزة ورفاقه في عام ١٩٤٠، وما رافق ذلك من اعتراض عام أطلقت السلطات الفرنسية سراحه، ونفته إلى تركيا حيث مكث هنالك خمسين شهراً وكان ممن غادر معه نبيه العظمة وأكرم زعيتر وواصف كمال واسحق دوريش.

ويختتم نضال هذا المجاهد السياسي والعسكري بالمأساة الأعظم، والنكبة الأكبر بمأساة فلسطين عام ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل، التي يعزوها عزة دروزة، كجريمة عظمى، إلى عدم قيام الدول العربية بتسليح الفلسطينيين وجعلهم هم - بالدرجة الأولى - يقومون بالجهاد والدفاع عن الأرض والعرض.

كرس الأستاذ دروزة الفترة الممتدة من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٨٤ للعلم والكتابة

بعد أن وضعت الحرب أوزارها، واستمر الفلسطينيون في ما يشبه الركود أو البيات الشتوي إلى عام ١٩٦٧، عندما انبعثت ثورتهم من جديد، وهنا كان دروزة قد كبر وشاخ.. وعلى أيه حال، فقد تميزت كتاباته بما يلي:

– أنه كاتب مكثر، كتب الصفحات الطويلة، فقد كتب ما مقداره ١٦٠٠٠ ورقة مذكرات، وانجز حوالي ١٨ مجلداً بعنوان «تسجيلات ومذكرات» كما أنه ألف وترجم عدداً كبيراً من الكتب القيمة دارت حول ثلاثة محاور رئيسية هي قوام شخصيته وتوجهاته ومنطلقاته: فلسطين والعرب والاسلام.

وتتميز كتاباته بأنها تصدر عن معاناة ومكابدة بمعنى أنه قدم لنا – ولعل هذا هو انجازه الأعظم – صورة عن كثير من الأحداث التي عاناها.. وترجم بذلك عن كثير من انطباعاته ودوره مع الآخرين من المجاهدين أمثاله.. فكتابه «حول الحركة العربية الحديثة» دراسة لتطور جهاد العرب على طريق اليقظة والوحدة والاستقلال في العهد الحديث. وفيما يخص فلسطين فإنه من أصدق وأوفى وأغنى من أرخ لها تاريخ معاناة ومشاركة، مثله في ذلك مثل أكرم زعيتر، وإلى حد ما عارف العارف، ولعله مع هذين من أكثر من زود المكتبة الفلسطينية والعربية بصفحات عن جهاد شعب فلسطين في وجه الصهيونية والاستعمار.

ولعل قارئ عزة دروزة يستطيع أن يستجلي تاريخ فلسطين والعرب الحديث والمعاصر بوضوح كبير من خلال قراءته لدوره ودور رفاقه ممن يترجم لهم وما لقيه وما عاناه نضالاً وسجناً وتشريداً ونفياً وحكماً بالموت أو الاعدام.

ومن هنا فلعل أي دارس، وباحث في التاريخ السياسي والنضال الفلسطيني، لا يستغني عن الاهتداء والاقتباس والتوثيق من عزة دروزة، ذلك لأنه خاض المعركة الوطنية حتى الاعماق، واكتوى بنارها وأصابته من جراء ذلك ندوب وجراح ميزت بعض كتاباته بالمرارة والألم الكبيرين.

نظّر عزة دروزة للثورة الفلسطينية في العشرينات والثلاثينات، والقضية الفلسطينية، بعد ذلك، كأفضل ما يكون التنظير وأكثره أصالة.

آمن دروزة بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الأرض العربية وأن الشعب الفلسطيني جزء من الشعب العربي.. ولا خلاف في ذلك، وأن الشعب الفلسطيني في معركته مع الصهيونية والاستعمار هو طليعة الأمة العربية.. هذا هو قدره وهذا هو دوره..

وآمن عزة دروزة بأن الصهيونية هي ربيبة الاستعمار وأن من يظن خلاف ذلك لن يفلح.. وأن الغرب الاستعماري انما رمانا عن قوس واحدة عندما أوجد لنا هذا السرطان في قلب الأمة العربي، الذي شل كيانها، والذي لا خلاص منه ولا برء من دائه إلا بالخلاص منه كلياً مرة وإلى الأبد، في جهاد أشبه ما يكون بجهاد صلاح الدين ضد الصليبيين.

لم يؤمن عزة درزة بانصاف الحلول، كما أنه لم يؤمن بالمهادنة، أمام هذا الخطر الوافد، والذي يزداد قوة في كل يوم. ولعل عزة دروزة يعتبر - بحق - بين كبار الرافضين، أو قل أنه مدرسة كاملة في الرفض، أو أنه كما يقول جون كمشي الكاتب الصهيوني، من أوائل من صاغوا اللاءات الثلاثة: لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات، في بداية العشرينات من هذا القرن.. في عهد المؤتمرات الفلسطينية، التي كان عزة دروزة نجماً من نجومها.. فهو يؤمن - كما أصبح يؤمن كثيرون غيره في وقتنا الراهن - بأنه لا يمكن أن يلتقي في فلسطين عرب ويهود، كما لا يلتقي أسدان في أجمة.. وأن وجود اليهود ككيان سياسي موت للعرب، كما أن العكس صحيح.

آمن عزة دروزة بأن الانفصام، لا ينبغي أن يكون بين العروبة والاسلام. وهو يأخذ على القوميين العرب من المحدثين أن فريقاً غالى في الانتماء القومي العربي، ونسي في غمرة هذا الغلو ما كان للاسلام، من الأثر الرئيسي والجوهري في المجد العربي الحديث.

وبعد، فإن كاتب هذه السطور ليدرك الآن، وقد رحل عنا هذا المجاهد الكبير إلى الدار الآخرة، لماذا قال له الدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية، في منتصف السبعينات، وقد علم أنه يعد اطروحته عن الحركة الوطنية الفلسطينية: أدرك عزة دروزة، فلديه المادة الغزيرة والزاد الفكري الوفير، وقد كان، واذكر أني ذهبت إليه في مصيفه في الزبداني، فوجدت فيه ما لا يمكن تلخيصه إلا بأنه تجسيد حي لتاريخ فلسطين الحديث. ولعل هذه السطور تكون - كما قدمنا - نوعاً من العرفان بالجميل لهذا الراحل العظيم بما أضاف لي ولغيري من الدارسين من مادة أولية، نابعة من الممارسة والمعاناة والتي هي الأساس في كل دراسة مجدة، ذلك لأنها تصل بالأشياء إلى حقيقتها أو تفسيرها الصحيح.

رحم الله الاستاذ الكبير والمجاهد العظيم محمد عزة دروزة أحد كبار الرواد في ميدانين رئيسيين هما خلاصة عزة الامم وسر شرفها، العلم والجهاد، أو كما يقول الشعار الحديث أن الحقيقة تنبع من فوهة البندقية، لدى كل فرد أو شعب يناضل، من أجل الحرية والعزة والاستقلال.

الأيام الأخيرة للعرب المسلمين في الأندلس

ان ننظر في تاريخنا بامعان.. وان نتوخى الحقيقة الموضوعية، معناهما أن نحقق الصدق والمصداقية في كتابتنا التاريخية... وهذا ما قام به الدكتور محمد عبدة حتامله، الذي عاد إلى تاريخنا العربي في الأندلس، في فترة الأفول والتلاشي، فدرسه على أساس من الوثائق المكتوبة باللغة الاسبانية التي بحث عنها ووجدها في الأديرة والكنائس ومختلف المظان... والتاريخ كما يذهب المؤرخ والفيلسوف الفرنسي لانجلوا ليس سوى الوثيقة.

ما يهمنا هنا أن الدكتور حتاملة نذر نفسه ما يقرب من أربع عشرة سنة طوالاً ليميط اللثام عن صفحات مجهولة في تاريخ الأندلس، ونعني بها تلك السنوات التي رافقت وتلت خروج العرب المسلمين أو من يسمون الموريسكيين من الأندلس. وتوصل من خلال ذلك إلى حقائق - فيما نعلم - لم يسبقه أحد إليها، فكان هو المؤرخ العربي الوحيد الذي أرخ وحقق ووثق فترة من أشد فترات تاريخنا غموضاً وخفاء. ويظهر هذا أكثر ما يظهر في تسجيله لجوانب القمع والتعذيب والتشريد التي عاناها المسلمون من الأندلسيين، الذين بعد أن سقطت غرناطة، آخر معاقل العرب في الأندلس، على يد فرديناند ملك أرغون وازابيلا ملكة قشتالة عام ١٤٩٢م ممن بقوا على أرض الأندلس.

على أن مؤرخنا المقتدر لا يفوته، أن يسجل صفحة أخرى باهرة عن تاريخ هذه الفترة، ألا وهي المقاومة الموريسكية لحكام الأندلس المسيحيين وبصورة خاصة في جبال البشرات. على أن كل هذا، وكما يروي المؤلف، لم يجنب المسلمين في الأندلس المصير الرهيب ألا وهو التصفية الكاملة والتنصير الشامل والطرد الكامل من الأندلس على يد الاسبان الكاثوليك.

يركز الدكتور حتاملة على ثلاث محاور أساسية في كتبه الثلاثة التي ألفها عن غروب الأندلس وهو «محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها» و «التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥١٧ - ١٥٩٨م» و «التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين ١٤٧٤ - ١٥١٦م:

المحور الأول: هو سقوط الأندلس تحت سنابك خيل الاسبان المسيحيين وهو يقول أنه

كما لا تأتي المصائب في تاريخنا إلا نتيجة الصراع الذاتي أو الحرب الداخلية، فإنه جرى أن سقطت الأندلس أو أنه كان سبباً أساسياً في سقوطها هو الصراع بين أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، وعمه المسمى بأبي عبد الله الزغل أيضاً. كما يخبرنا عن المجازر التي جرت بمناسبة احتلالها. وهو يروي كيف تم حصار غرناطة وأقيمت مدينة كاملة تسمى شنتفي «الايمان المقدس» أقامها فرديناند وازابيلا اللذين ضما صفوفهما أمام المسلمين لاستدامة الحصار على غرناطة حتى سقوطها...

ويتطرق المؤلف إلى المعاهدة التي عقدت بين الملكين وأبي عبد الله الصغير، و التي تنص على ضمان الأمن والسلامة على النفوس والأموال والأعراض للمسلمين ولكن هيهات! لم يلبث تنكر الملكان المنتصران لكل بند من بنودها الكثيرة. ومن هنا بدأت رحلة التعذيب والبطش والموت الأسود... لمن أراد أن يستمر على دينه الاسلامي.

وهنا يحدثنا الكاتب في صحفات كئيبة أخرى لهذه المأساة، مأساة تسليم غرناطة عن أقوال قيلت بهذه المناسبة:

فقد قال أبو عبد الله الصغير إلى الملك فرديناند: «اذهب أيها السيد واستلم قصوري باسم الملكين العظيمين فإن الله أراد أن يمنحهما ما يستحقان وان يعاقبني بالحرمان مكافأة للمسيحيين وعقاباً للمسلمين!».

كما قالت والدة أبي عبد الله: «ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

أما الاسبان فقد وصفوا المكان الذي توقف فيه الصغير ليلقي على غرناطة آخر نظرة (زفرات أو تنهدات الملك العربي Suspire del Moro) المهم أن المطاف انتهى بأبي عبد الله الصغير أن يعود إلى المغرب ويلحق به، وعلى مراحل سائر الأندلسيين، في رحلة هزيمة وتشرد من أبأس رحلات الانسان عبر التاريخ!

أما المحور الثاني الذي يتحدث عنه المؤلف، الدكتور حتامله، وهو بذلك يزود المكتبة العربية بصفحات وافية، لا عهد لأحد بها - أو أنها لا يعرفها لا القليل - صفحات مرعبة من التعذيب الذي تعرض له الأندلسيون ممن حاولوا البقاء على دينهم.

يقول في هذا الشأن أنه: جرى احراق مليون وخمسمائة ألف كتاب ديني، وأن المسلمين تعرضوا لأفظع محاكمات تعرض لها بشر عبر التاريخ الطويل للانسانية، ألا

وهو محاكمات محاكم التفتيش، التي كانت تتلى فيها الأحكام الصادرة بحق المتهمين، الذي يقبض عليهم لينالوا العذاب الجسدي دون هوادة أو رحمة! فقد حكمت محكمة طليطلة – على سبيل المثال – بوجوب الايمان بالمسيحية وترك الاسلام أو الموت حرقاً لـ(١٢٠٠) مسلم في جلسة ايمان واحدة (جلسة الايمان تعني جلسة المحاكمة).

غاية الأمر ان كل من كان يتجه نحو ملكه أو يستخدم اللغة العربية في حديثه كان يحكم عليه بالحرق حياً حتى الموت.

ويحدثنا المؤرخ الانجليزي بريسكون في هذا الشأن، عن انهار من الدماء، وعن ابادة جماعية تامة لهؤلاء الاندلسيين، المسلمين في كل مكان.

على أن من ضروب العسف والبطش والتعذيب، الذي تعرض له هؤلاء، كان مصادرة الأطفال من سن (٥ – ١٢) سنة ليربوا تربية خاصة في المعاهد المسيحية.

وصفحة أخرى من صفحات الاضطهاد الذي لحق بالمسلمين في الأندلس، هي التهجير القسري لهم، وتحت كل سماء: فقد عمد الاسبان الكاثوليك في جزء من مسلسل القمع الذي مارسوه إلى توزيع موريسكيي غرناطة وغيرهم على مختلف أنحاء شبه جزيرة ايبريا ومصادرة ممتلكاتهم، وحرم عليهم مغادرة أماكنهم الجديدة حتى أن مؤرخنا ليقول: «أصبح الموريسكي مخلوقاً بائساً هائماً على وجهه يتنقل دائماً من مكان إلى آخر» وكانت هذه الرحلة البائسة لكل منهم من أجل أن يعود إلى موطنه الأصلي. وهو يروي لنا أن المسلمين تواجدوا في الربع الأخير من القرن السادس عشر بأعداد كبيرة في مدن مختلفة: ففي عام ١٥٧٤ كان عدد المسلمين في غرناطة (٤٨,٥٠٠) وفي مملكة طليطلة (١٩,٨١٩) وفي مملكة قشتالة بعد تهجير موريسكيي غرناطة إليها (٨٠,٠٠٠) وفي اشبيلية (٨٠٠٠) وحتى نهاية القرن السادس عشر شكل الموريسكيون أغلبية فيما بين نهري ميخارس وخوكار.

لكن هذا التواجد لم يجد نفعاً، فلم يلبث حال هؤلاء المتواجدين وبعد حملات التشريد والتهجير المنظمة، وإلى مختلف أنحاء شبه الجزيرة، أن أصبحت قوة الموريسكيين غير فعالة، فالموريسكي، الذي أصبح كالشاة السوداء يقتل بالظنة دون أن يثبت عليه ذنب أو جرم، أصبح وبصورة كاملة بدون أية كيانية تذكر. حتى أن نجم عن هذا الوضع المؤلم أن التجأ بعضهم إلى الجبال لتوجيه ضربات بائسة، من هناك، مهما كانت النتيجة لهم ولأسرهم.

والمحور الثالث الذي يدير مؤرخنا الحديث حوله، معتمداً على وثائقه بطبيعة الحال ومنتهياً إلى أبعاد جديدة، هو المقاومة الاسلامية لحملات الابادة والتنصير والتهجير الجماعية. فقد قامت على أرض الأندلس بين الأندلسيين العرب والمسلمين، في مرحلة من أشد مراحل وجودهم هناك عدة انتفاضات أرقت الاسبان واستهلكت جزءاً غير قليل من جهدهم ووقتهم وطاقتهم، ولقد استمر بعض هذه الانتفاضات، بعد أفول شمس العرب عن الأندلس، وإلى ثلاثة قرون.

وثورة فرج بن فرج هي أولى هذه الانتفاضات التي يتحدث عنها المؤلف. فقد صبر فرج بن فرج على القتال أمام أصعب الظروف في جبال البشرات وسط البرد والثلج.

أما ثورة محمد بن أمية الذي يعود في تسميته ونسبه إلى بني أمية، فقد قاد المقاومة ضد الاسبان، ببسالة واحتل كل الحقول وأراضي نهر المنصورة، واستمر على هذا ردحاً غير قليل من الزمن حتى تم اغتياله على أيد عربية.

على أن الثورة لم تمت بموت ابن أمية بل استمرت بقيادة جديدة، هي قيادة ابن عبو، الذي تولى عام ١٥٧١، وانتهى كفاحه المجيد أيضاً بالاغتيال على يد أقارب ابن أمية والذين أرسلهم الاسبان ليتفاوضوا معه ومع جميع رفاقه من الموريسكيين.

ولقد جوبهت هذه الانتفاضات والثورات بكل ضروب القمع من الاسبان، والتي كان منها قتل الشيوخ والاطفال وبقر بطون الحوامل وتوزيع النساء الموريسكيات على الجنود الاسبان، وأسر الكثيرين الذين كانوا يباعون في بلاد بعيدة. وكان من جملة أساليب القمع اشعال النار على مداخل الكهوف ليخنق من بداخلها.. فإن حاول الخروج مات حرقا.

ولكن هل توقفت الثورات.. لا! فالمؤرخون يجمعون على معجزة المقاومة في البشرات ثلاثة قرون متوالية حتى ماتت موتاً بطيئاً بسبب تصاعد قوة الاسبان من ناحية وتراجع قوة المسلمين تدريجياً من الناحية الأخرى.

وبعد، لا نبالغ عندما نقول أن هذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما يورده مؤرخنا الأردني، الدكتور محمد عبده حتاملة عن هذه التراجيديا لجزء من أهلنا في جزء من تاريخنا، ونعني به تاريخ الموريسكيين العرب المسلمين في اسبانيا بعد سقوط الاندلس وإلى قرون تلت طويلة. وهو جهد استحق عليه الشكر والتقدير من كل من أتيح له الاطلاع على هذا الجهد الفريد...

«أبناء السندباد»★
نافذة غربية على ماضي الكويت

ان يتصدى المرء لأثر نفسي مكتوب بلغة أجنبية، فينقله إلى العربية، انجاز كبير. وهذا ما فعله الدكتور نايف خرما استاذ اللغة الانكليزية بكلية الآداب بجامعة الكويت. فقد اتيح لكاتب هذه السطور أن يطلع على مخطوط لترجمة محكمة لكتاب الرحالة الانكليزي فليبرز، قام بها الدكتور خرما بتكليف من وزارة الاعلام ويستعد لنشرها في وقت قريب. وأهمية هذا الانجاز تكمن في ناحيتين أساسيتين:

الناحية الأولى أن الدكتور خرما يملك الاداة القوية للترجمة فقد عانى اللغة الانكليزية فترة كبيرة من الزمن: طالباً، ومدرساً، وموجهاً عاما ومستشاراً لها في وزارة التربية، إلى أن تسلم منصبه الحالي أستاذاً لها في جامعة الكويت.

ومن هنا فقد جاءت ترجتمه للكتاب ترجمة دقيقة محيطة بأدق الدقائق فيه. واستطاعت معدته الفكرية القوية، أن تهضم وتنقل لنا أثراً بمقدار ما هو غني، مليء أيضاً بالمعاني والتجارب التي عاشها مؤلفها - كما سنتحدث عنه فيما سيلي - ومليء كذلك بالتركيبات اللغوية المركبة، إذا لم نقل المعقدة أحياناً. وحتى لا يشق المترجم على قارئه، فقد توخى اسلوباً وسطاً.. اسلوباً يروق للمثقف ولا يشق على القارئ العادي.. كما أنه حرص الحرص كله على أن لا يفقد الكتاب شيئاً من أصالته الفنية، وجمال ديباجته. وعلى هذا فقد وفق توفيقاً كبيراً. وقد وصف المترجم منهجه في الترجمة في مقدمة كتابه فقال:

«.. التزمنا التزاماً تاماً بالنص الأصلي... مع حرصنا الشديد على نقل الأفكار وتفاصيل الوصف للأشياء والأحداث. لم نحاول أن نستخدم لغة أدبية خاصة يعسر على القارئ العادي أن يفهمها أو يستمتع بها. بل عمدنا إلى استعمال لغة عادية، سليمة بقدر الامكان، عربية البنية والجرس، في معظم الأحيان... حاولنا بقدر استطاعتنا الحفاظ على

★ تأليف الكاتب الانكليزي آلن فليبرز ترجمه وحققه الدكتور نايف خرما.

التغيرات في اسلوب المؤلف، من الاسلوب الأدبي الرفيع، إلى الأسلوب الفني الرقيق، إلى اسلوب الكلام والخطاب...»

وحقيقة الأمر أن الترجمة جاءت مشوقة، قريبة إلى النفس... حتى أنك إذا شرعت في قراءتها شعرت برغبة كبيرة في الاستمرار على ذلك، وشدك الكتاب إليه شداً قوياً، وأصبحت قراءته بالنسبة لك متعة فنية فضلاً عن كونها متعة فكرية، بل سياحة في عالم كبير من المعرفة والخبرة الشاسعة الأبعاد.

مقارنة بين ترجمتين:

ولعل الدكتور نايف خرما قد رسم لنا طريقاً في كيفية تناول الأثر الغربي، والأمانة في التعامل معه. ويظهر هذا في المقارنة بين ترجمتين للكتاب نفسه، الذي هو محل النقد في هذه الدراسة، الترجمة الأولى - تصدى لها أحد المترجمين قبل الدكتور خرما - التي طغت على الحقيقة العلمية، وأسرفت في عدم العناية والاهمال، حتى تخلت عن كثير من الفقرات. وكان من جراء ذلك أن تداخلت الأفكار، وغمضت المعاني، وبايجاز سادت الفوضى، والترجمة الثانية التي بذل فيها المترجم جهداً كبيراً ومخلصاً، وتفرغ لها ردحاً غير قليل حتى استوت على ساقها، وجاءت أثراً تعتز به المكتبة العربية. ولا نبالغ إذا قلنا نموذجاً يحتذى للاخلاص والأمانة العلمية والدأب والمثابرة والمكابدة العميقة.

والناحية الثانية، أن الكتاب نفسه باللغة الانكليزية أثر قيم، وجهد عظيم،وبخاصة في أدب الرحلات.. ومن هذا تأتي قيمته كمرجع كبير في فن الملاحة وركوب البحار. فكاتبه الانكليزي الن فلييرز أحد الرواد في ركوب البحار، ركب البحر إلى استراليا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، وفي عام ١٩٣٥ كان الن فلييرز (أو الشيخ ماجد كما كان البحارة العرب يسمونه) يقود المركب الشراعي «جوزف كونراد» الذي كان آخر مركب شراعي يدور حول رأس هورن بأقصى جنوب القارتين الاميركيتين. كما أنه كان قبطان المركب الشراعي الذي بني على غرار مركب «ماي فلور» (الذي سافر فيه كريستوفر كولمبس إلى أميركا) عندما قام برحلته الشهيرة إلى أميركا عام ١٤٩٢.

وعندما حطت به عصا الترحال في جنوب الجزيرة العربية، في أواخر الثلاثينات، انطلق من عدن برحلة عظيمة طوف فيها عالم البحر العربي من جنوب الجزيرة إلى ساحل افريقيا، (مقاديشو ومباسا وزنجبار إلى دلتا نهر الروفيجي)، عوداً إلى الخليج العربي، ووصولاً إلى الكويت. ولقد أدرك الرحالة الانكليزي الكويت في أواخر

الثلاثينات، فوصفها لنا وصفاً دقيقاً... ورآها رؤية عميقة، وتوقف عندها وقفة خاصة، وأضفى عليها من اشراق بيانه وعمق تفكيره ودقة بحثه ما جعل كتابه تاريخاً يضاف إلي التاريخ، فضلاً عن كونه أدباً من الأدب أو فناً من الفن. ولعمري فإنه كان لا بد لهذه الحقبة من تاريخ الكويت، كويت ما قبل النفط، أن تدون، و أن تدون تدويناً واقعياً ينبع من التجربة الحارة، والمعايشة الصادقة، والمعاناة الكاملة. ولقد فعل الرحالة الأوروبي هذا...

كويت ما قبل النفط

تشكل فترة ما قبل النفط في تاريخ الكويت، وتلك الأيام المشحونة بالعرق والدموع والجهد الاصيل المثابر، والجلد الصوفي العظيم في مقارعة الصعاب، وتحدي الطبيعة القاسية... أقول تشكل تلك الفترة بعداً مركزياً في نفس كل كويتي عاش تلك الأيام في الحقيقة والواقع، أو أنه عاشها بالفكر والخيال كما فعل جيل الأبناء. كما أنها تشكل نغماً أصيلاً في سيمفونية الرحلة الكويتية عبر التاريخ.. وأحياناً تشكل حنيناً يبلغ درجة النوستالجيا، ويأخذ أنماطاً متعددة في الاثارة الفنية والفكرية والأدبية الكويتية، كما أنها سلوى كبيرة للكثيرين، يتذكرونها بشغف، ويجتمعون حولها وحول أسمارها في المجالس والدواوين، ويتوقون إليها توقاً دافقاً يشعرون به شعوراً أصيلاً، وبخاصة عندما يحسون بتعقيدات الحضارة الحديثة، ومشقة العيش والقلق الذي جلبته الحضارة، مثلهم في ذلك مثل شعراء الرومانسية في أوروبا، الذي ثاروا على تعقيدات الثورة الصناعية، فعادوا إلى الطبيعة بما فيها من جمال وبساطة، واستلهموها أجمل آثارهم وأبدع انتاجهم، ومثلهم في ذلك أيضاً - في تراثنا العربي - مثل تلك البدوية التي امتلأت رومانيسة - ايضاً - وهامت عشقاً بحياة البداوة والصحراء المعطاءة بما فيها من بساطة ويسر وعفوية.. وأعني بها ميسون الكلبية التي ردت عندما تزوجها معاوية فأسكنها ردهات القصور، وأحاطها بمظاهر النعمة من رياش وأرائك وخدم وحشم.. ردت هذه المظاهر، أو قل أنها ثارت على هذه المظاهر، ولم تنسها أياماً مضت جميلة رقراقة كالماء العذب يسري.. وقالت:

لبيت تخفق الأرياح فيه
أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحبّ إلي من لبس الشفوف

لسان حال كل كويتي في زمننا هذا يقول: رعا الله تلك الأيام، وسقاها من ماء المزن! بما كانت وما حملت! ومن هنا، فانهم سيجدون في الكتاب الذي ترجمه الدكتور خرما، ولم يبخل عليه بالنفحة الأدبية - كما ذكرنا - سيجدون به عزاء، كما سيجدون به جمالاً، وستتداعي لديهم الذكريات ويعودون إلى رومانسية الثلاثينات في الكويت، وكما وفق أيضاً الكاتب في وصفها، وصفاً متعاطفاً. وستبقى من أجمل فصول الكتاب تلك التي تصف العواطف الجريئة التي يتبادلها الشبان والفتيات، على استحياء، في مجتمع بسيط، قبل أن يجمع بينهم على سنة الله ورسوله! الدريشة من ورائها الفتاة ترقب العالم الخارجي بتعجب، وخجل، وحيرة. «والفريج»، ودروب الكويت المعرجة وحشود الناس تودع السفر، والغواصين وتستقبلهم في عيد بهيج، وتعامل الناس ببساطة وحب. كل هذه المعاني يحمدها المرء للمؤلف، ويشعر من قراءتها بصدق الكاتب وفهمه وتعمقه.

ووضع الكويت في أواخر الثلاثينات، الذي هو امتداد لمئات من السنين سبقتها، كمثل مشهد أو مشاهد في تمثيلية شجية سخية، شخوصها مختارون بعناية، ويقومون بأدوارهم بصدق وأصالة، ويؤدون واجبهم بخشوع ومحبة. وقد أتيح لأحد الأشخاص أن يسجل هذه المسرحية قبل أن يسدل عليها الستار، باكتشاف النفط وتغير معالم الحياة - إلى الأبد! وكان هذا الذي سجل هذا المشهد، أو هذه المشاهد، قبل أن يسدل الستار، هو الرحالة فليبرز في كتابه ومن هنا، فإن له قيمة ترقى إلى مرتبة القيمة الوثائقية.

أمر آخر بين أمور جديرة بالتقدير - وما أكثرها - في هذا الكتاب، أن كاتبه يجمع بين خاصتين أساسيتين خاصية العالم وخاصية الأديب، وتلتقي هاتان الخاصيتان لتمنحا كتابه قيمة على قيمة.

أما أنه عالم فتكتشف هذا في شدة عنايته بالتفاصيل. ويظهر هذا التفصيل أكثر ما يظهر في وصف السفن الكويتية بخاصة والعربية بعامة. فعلى ما أعلم فإنني لم أقرأ أثراً استقصى فيه كاتبه نواحي متعددة في بنيان السفينة: البوم والبغلة والسمبوك وغيرها، كما استقصى كاتبنا هذا. ولعل هذا ما أرهق المترجم من أمره عسراً، حتى يكاد لا يجد لهذه التفاصيل مقابلاً في اللغة العربية المعروفة، مما يضطره أن ينقب في المراجع العربية القديمة ويبذل في ذلك جهداً غير قليل، وعلى هذا فإنه فضلاً عن الترجمة فقد عمد إلى التحقيق فكأنما بجهده هذا قد أضاف إلى علم الكتاب علماً شديد الصلة به لصيقاً برسالته. ولقد امتد البحث بالمترجم فاتصل ببعض ذوي الخبرة والبصيرة، من رجالات

الكويت ممن عاصر أيام السفر والبحر، فاستشارهم بشأن هذا الكتاب، وما غمض من شأن بعض التسميات الانكليزية لاصطلاحات البحر والسفر وعالم السفينة واجزائها. وكان للأستاذ أحمد البشر الرومي والأستاذ محمد الرشيد، وغيرهما من أهل الخبرة والدراية، جهد مشكور وفضل لا ينكر.

عاشق السفن والبحر

وأما أنه أديب فالكاتب عاشق كبير لعالم السفن والبحر بعامة، ولولا أنه كذلك فإنه لم يكن ليقف عند تلك الأجزاء فيوفيها حقها مثل ما وفاها. وقارئ الكتاب لا يشعر أن الكاتب يصف هذه التفاصيل وصفاً عادياً، بل أنه يشعر أن حبه الكبير للسفينة يتحول في اسلوبه إلى ترنيمة هادئة يلقيها في محراب حبه، أو صلاة يصليها في محرابه..

لم يصف الكاتب السفينة وأجزاءها وأنماطها وانما وصف كل مكان زاره، وما أكثر المحطات التي وقف بها أو استوقفته. ولا نريد أن نقول عنه كما قيل عن شعراء العرب في الجاهلية أنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى! ولكنه بذل شيئاً من حشاشة ذاته. وصور عن وعي وانفعال صادقين، كل ما كان يمر به. وصف رومانسية الموانئ المهجورة البعيدة، كما أنه وصف عوالم متعددة ليست بتلك الرومانسية وجمالها ولطفها. وانما فيها من تعقيدات الحياة ما فيها. وصف عالم ركاب البحار، من مغامرين وافاقين، كما أنه وصف - على الجانب الآخر - عالم السفر جميعه: النواخذة، والغواصين، ومساعديهم، والتجارة بين الموانئ المختلفة.

ولعل من أكثر ما وفق به الكاتب هو مقدرته على وصف الأشخاص، حتى لكأنك تراهم!

وفن التشخيص لدى الكاتب - أي القدرة على رسم الشخوص - فن قائم بذاته، شبيه برسم لوحة، بخطوط سريعة ويسيرة. ومع ذلك فإن الشخصية تبرز أمامك من عالم الخيال، كأنها واقع مجسد! تتقراها يداك بلمس! كما يقول الشاعر البحتري.

وان قارئ الآداب الغربية والشرقية لن ينسى نموذجاً فريداً رسمه الكاتب بريشته الدقيقة المعطاء، هي صورة النوخذة الكويتي «نجدي». هنا تمكن الكاتب أن يرسم الملامح البدنية والملامح النفسية والخلقية، فبرزت شخصيته بين دفتي الكتاب قوية أصيلة ذكية كريمة وسيمة.. جماع كامل لكل صفات العربي كما نرجوها وكما نحبها!

أكثر من ذلك، أن الكاتب وفق في وصف عالم كامل، وعالم البحارة على ظهر السفينية وهم يمخرون عباب البحار برحلتهم الطويلة. قادة السفينة ومعاونوهم: الطباخ والنجار والموسيقى والمغنون، ومع هؤلاء الركاب المسافرين سفراً بعيداً أو قريباً، والتجار، وكل ما يدور ويعمل في نفس كل منهم، وما هي تجربته، وماذا يشكو وماذا يأمل، ويرجو. حتى لكأنك تعيش معهم رحلتهم مشرقاً ومغرباً، يوماً فيوماً، بل ساعة فساعة. وتشعر وسط كل ذلك ماذا كانت تشكل كويت الأمس للكويتي الراحل عنها إلى حين.. الأمل، والحب، والاسرة، والأهل، والولد، والوطن.. الاستقرار وكل ما يمكن أن تجود به الحياة من نعمة، ورغد، وهناء...

الرحالة الكويتي

وصف الكاتب ما للكويت في نفوس أبنائها من عشق أو تعشق! وركز على الرحالة الكويتي أكثر ما ركز. وهذا ما يجعلنا نذكر ميزة أخرى للكاتب، هي أنه خص الكويت بكل تعاطفه. وأنه إذا كان الكاتب قد جار على بعض المناطق الأخرى، أو أهلها – من غير الكويت – فإن تعاطفه مع الكويت وثناءه على الكويتيين، لما لمسه لديهم من قيم، ومحافظة على روح العروبة، وأخلاقيات البحر العربية، لم يتزحزح ولم يتغير طوال صفحات الكتاب.

كتاب أبناء السندباد فيه الكثير مما يدعو إلى السرور أو الدهشة.. جاء جزاء وفاقا لوصف مغامرات أحفاد السندباد وأبنائه، ذلك الرحالة العربي الذي جوب الآفاق تحمله قافلة وتحطه قافلة.. ووصل إلى بلاد بعيدة بعيدة! وعاني ما عانى وأعظمها الدهشة! واكتشاف عوالم جديدة.. وشرب من التجربة حتى ثمل! مما تمتلئ به صفحات ألف ليلة وليلة، وغيرها من كتب الرحلات المذهلة، إلى درجة الاسطورة. وقد جاءت اطروحة الكاتب الأساسية لتصف شيئاً أو أشياء من أخلاق أبناء السندباد هؤلاء: مغامراتهم، عفويتهم إلى درجة الاتكالية أحياناً، شجاعتهم القاتلة! ومقدرتهم على التكيف وحسن التخلص والتغلب على المصاعب.. وفوق كل هذا ايمانهم بالعناية الربانية، وتسليم أمرهم لله العظيم، مدبر هذا الكون رب الأرض والسماء والبحار.

تلكم هي بعض الأفكار والمشاعر والخواطر عن هذا الكتاب الذي نرجو له أن ينفع الله به وأن يلقى من القراء ما هو به جدير. وأن يكون نافذة للأجيال، تطل من خلاله على ذلك العالم الغابر، عالم ما قبل النفط، بكل ما له وما عليه.

يقول المترجم في مقدمة كتابه ما نصه:

«وهي (أي الترجمة) موجهة بصفة خاصة إلى الجيل الجديد والأجيال المقبلة، من أبناء النفط في الكويت، الذين لا يعلمون الكثير عما قاساه اباؤهم وأجدادهم من شظف العيش ومشاق الحياة، سواء في المدينة أو في مواسم الغوص، أو على متون المراكب الكبيرة، يأخذون من ذلك عبرة، ويستفيدون موعظة، ويسيرون على منهاج السابقين، في سمو الخلق وطيب المعاملة والصبر على المصاعب والمثابرة في الجهد لبلوغ الهدف المنشود، والتعاون مع بعضهم بعضاً ومع حكومتهم الرشيدة في السير بسفينة البلاد إلى بر الأمان في هذا البحر المتلاطم من الاوضاع العالمية المضطربة».

ونحن إذا كنا نريد من كلمة ختامية نقولها حول الترجمة أو التعريب لا بد لنا أن نقول أننا ما زلنا بحاجة إلى أن نغترف الحكمة والمعرفة من مظانها أينما كانت وبأي لغة كانت. وأننا إذا كنا فاعلين ولا بد فاعلون حتى نلحق بركب الحضارة فلنختر آثاراً من مثل هذا الأثر – الذي تحدثنا عنه – غذاء للعقل وغذاء للروح.. وبذلك نكون قد حققنا للثقافة هدفاً وازددنا معرفة وعشنا تجربة رائدة رشيدة نحو عالم أفضل وحضارة أغنى وأخصب وأكثر تقدما.

قراءة في الفكر الصهيوني والتجربة الصهيونية
تأميم الأوطان والتاريخ

يحاول الكيان الصهيوني تمرير بعض معالم الفكر الصهيوني من خلال سياسة التطبيع على المصريين العرب وبالتالي على غيرهم من العرب الآخرين. واليوم نحن بصدد نمط من هذا الفكر الصهيوني النابع من التجربة الصهيونية بمجلمها. وسنحاول هنا التسلح بسلاح الموضوعية في نقد فكر وتجربة غير موضوعيين! فهي محاولة في دراسة ونقد كتاب غولدا مائير. رئيسة وزراء اسرائيل السابقة، «حياتي»، مذكراتها وذكرياتها وتفسيراتها لتجربة شخصية وتاريخية عريضة تبدأ من العقد الثالث لهذا القرن وتنتهي في أواسط العقد الثامن.

ان من أصعب الأمور على المؤرخ العربي أن يتصدى لدراسة أثر صهيوني وان يحافظ، أمام ما فيه من تفسيرات غير محقة وغير صادقة في أغلب الأحيان، على مصداقيته وموضوعيته. ومع هذا فإني سأحاول بكل تجرد ممكن أن أقتحم هذا الكتاب وأن أقرأ فيه وحوله كثيراً مما ورد فيه من حقائق وتفسير لهذه الحقائق.

ابتداء، ينبغي القول، أن الكتاب مكتوب بكل الذكاء والبراعة اللذين تميزت بهما امرأة غير عادية، وصهيونية من رأسها إلى أخمص قدميها! كان لها دور، على علاته ومهما قيل فيه، عظيم في بناء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين والعرب. ذكاء وبراعة يذكرانك بكتابات حاييم وايزمن صاحب المذكرات المشهورة وأحد كبار مؤسسي الكيان الصهيوني، وكتابات أبا ايبان بما أوتي من خلابة وفصاحة عجيبتين. كما يذكرانك بكتابات كثير من أعلام الدعاية الصهاينة وأمراء منابر الخطابة والتبشير بالقضية الصهيونية وبخاصة الأمم المتحدة مثل هرتسوغ وهاركابي ودايان وغيرهم.

أكثر من هذا. لعل هذه المذكرات، التي تكتسي قيمة وثائقية، قد عالجت أكثر من أية مذكرات أخرى التجربة الصهيونية بمجملها، منذ وعد بلفور إلى ما بعد حرب اكتوبر أكثر من مذكرات وايزمن التي توقفت عند أواخر الأربعينات، وأكثر من مذكرات دايان وبن غوريون التي هي ذات صبغة شخصية فردية ومحدودة وليس فيها العمق والنظرة الشمولية والنفس التاريخي التي لدى مذكرات غولدا مائير. ولعل هذا يعود، في أكثر ما يعود إليه،

إلى أن غولدا مائير، بطاقتها العجيبة ودهائها الشديد، انغمست أو انخرطت في التجربة الصهيونية حتى الأعماق: ضحت من أجلها، كما تشير المذكرات، بالزوج الذي انفصلت عنه بالطلاق، وإلى حد ما بالولد الذين أهملت تربيتهم، من أجل تكريس جهودها جميعها للقضية الصهيونية.

ومهما يكن من أمر، فإنه ليس بمكنتنا في هذه الدراسة أن نعرض لهذه المذكرات التي تصور مرحلة حاسمة في تاريخ الحركة الصهيونية، ما قبل قيام الكيان الصهيوني وما بعد، بما شملت من حروب ووقائع متعددة متداخلة: محلياً وعربياً وعالمياً.. ليس بمكنتنا هذا، ومن هنا، فإننا سنقتصر على أهم اطروحاتها، أي المذكرات، و التي هي أبرز ما فيها ورمز لما حوت وما جاء فيها.

القضية الكبرى في هذه المذكرات هي وصف تجربة تأميم الوطن الفلسطيني لحساب الصهيونية، وكتابة تاريخ نابع من وجهة نظر صهيونية بحتة... تاريخ مؤمم أيضاً! غاية هذا التاريخ وآيته اثبات شرعية الكيان الصهيوني وطمس أي حق للعرب في فلسطين.

يجيء هذا التأميم للوطن والتاريخ من مقولة أو قل فرية أساسية وجذرية في الفكر الصهيوني والتجربة الصهيونية مؤداها أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.. تجد شاهداً عليها في الأدب الصهيوني في القرن التاسع عشر وفي المؤتمرات الصهيونية من لدن مؤتمر بازل (١٨٩٧) إلى غيره من المؤتمرات. وتجد تجسيداً لها في وعد بلفور الذي أعطاه من لا يستحق لمن لا يملك. بريطانيا للصهاينة، والذي منح فلسطين وطناً قومياً لليهود وأنكر على الفلسطينيين صفة الشعب واعتبرهم أقليات أو طوائف جاد عليهم بالحقوق المدنية والدينية مع أن اليهود لم يكونوا في فلسطين إلا أقلية لا تكاد تذكر!

ومع أن الحركة الصهيونية اكتشفت - واقعياً - من خلال الصدام المباشر أن في فلسطين شعباً، وشعباً عريقاً يعيش على ارضه منذ ألوف السنين، من أيام الكنعانيين (العرب) الذين هم أول من سكنوا فلسطين وأقاموا حضارة وبنى ملكهم «ملكي صادق» مدينة القدس وسماها يبوس، مع أن الصهاينة اكتشفوا هذه الحقيقة البسيطة والرهيبة في نفس الوقت لأنها تنسف المقولة أو الفلسفة الصهيونية من أساسها، وتجعلها قضية شعب يريد أن يطغى على شعب آخر ويسرق وطنه أو يقتلعه منه وبهذا تحرمها من أية أخلاقية أو روحية.. أقول مع أن الصهاينة اكتشفوا هذه الحقيقة إلا أنهم استمروا في طغيانهم

يعمهون.. وهنا نجد أن مذكرات غولدا مئير تصور جهود الحركة الصهيونية في انشاء المؤسسات الصهيونية والمشاريع على أرض فلسطين مثل الكبوتس والموشاف والهستدروت ولكنها تغفل وجود الشعب الفلسطيني كأنما تقيم هذه المشروعات على ارض خلاء أو خراب! - وتتكرر هذه الصفة أكثر من مرة في الكتاب - ولا تتحدث عن انتفاضات الفلسطينيين وثوراتهم على هذا الغزو لديارهم، كما لا تتحدث عن الضحايا الذين كانوا يسقطون من أجل اقامة الكبوتس والموشاف.. لا تتحدث عن مآسي الفلاحين الذين يشردون - جماعياً.. من قراهم وأملاكهم.. كما لا تذكر وهي تتحدث عن دور الهستدروت، عن الطغيان الذي مارسه على العمال العرب في حرمانهم من العمل واحتكاره للعامل الصهيوني الذي أراد الهستدروت استنقاذه من نفسية الذل والهوان التي عاشها في الغيتو الأوروبي بجعله يمارس العمل وبخاصة في الزراعة من أجل أن يسمو به ويطهره تطهيراً!

ومع كل دفاع غولدا مائير عن التجربة الصهيونية على أرض فلسطين التي تغدق عليها كل ما في قاموسها من صفات العظمة والريادة والعمل المثابر الخلاق حتى أنها لتعتبر زيارة واحدة لاسرائيل أجدى من الناحية الاعلامية من مئات الزيارات للخارج... مع كل هذا الدفاع، فإن هذا لا ينفي حقيقة بسيطة وأساسية وهي أن فلسطين أرض لشعب وأن اليهود كانوا - وما زالوا - جسماً غريباً وافداً لا يمت لهذه الأرض بصلة.. بالرغم من كل ما يحاول الكتاب أن يضفي على الكيان الصهيوني من تجميل وما وضع على أرض فلسطين من ديكوارت فيلم سينمائي بارع! يقول المؤرخ الانكليزي كرستوفر سايكس في كتابه «اسرائيل على مفترق الطرق»: كان كل شيء على ما يرام بالنسبة للتجربة الصهيونية لولا قضية بسيطة واحدة ولكنها مع ذلك قاتلة! انه كان هنالك، ووجد الصهيونيون على ارض فلسطين شعباً! ومع كل ما قامت به اسرائيل من أجل الغاء هذه الحقيقة عن طريق التشريد وحرب الابادة.. الحرب النفسية والمادية.. والمحاولة المستمرة لغسل الأدمغة فإن هذا الشعب قد عاش وبقي واستمر.. ومشكلة الكيان الصهيوني اليوم وهاجسه الأكيد هي كما كانت بالامس التعامل مع أرض شعبها - بكل ملايينه - يزداد مع صبيحة كل نهار اصراراً على حقه.. وخاصة بعد أن حمل البندقية...

إذن هذه المقولة، مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» مقولة تافهة لا يصدقها الواقع ولا التاريخ بأي حال من الأحوال، بالرغم من اصرار غولدا مائير وكتاب الصهيونية جيمعاً الذين يقولون في كتبهم في السطور وما بين السطور، ويضفون عليها

– أي الصهيونية – أمجاداً في تحضير البرابرة (الهنود الحمر والاستراليين السود الذين وجدوا نماذج لهم كبقايا الديناصور على ارض فلسطين عندما اكتشفوها وأماطوا عنها اللثام لأول مرة)!

وشبيه بهذه المقولة الأولى هو وصف غولدا مائير لاقامة دولة الكيان الصهيوني وما رافقها من حرب عدوانية ارهابية تعمدت بدم أهالي دير ياسين والناصرية وغيرهما من فلسطين، وسرقة وطن بحاله من أصحابه الشرعيين، وصفها لاقامة هذا الكيان – وهذه شنشنة طالما سمعناها من كتاب الصهاينة الآخرين – بحرب الاستقلال... ان ما يسمه الصهاينة بحرب الاستقلال ليس في عرف أي مؤرخ منصف، عربي وغير عربي، إلا حرب اغتصاب، حرب استعمار انتهت بتشريد أمه بحالها، شيوخها وأطفالها ونسائها ورجالها من ديارهم، واحلال مجموعة من مشردي الأرض وشذاذ الآفاق محلهم دون أن يرف لهذه الصهوينة جفن أو يتحرك ضمير.. تم هذا أمام سمع العالم وبصره وفي عز الظهيرة وعلى عينك يا تاجرا ولعل محاولات طمس الحقائق تبلغ أشدها عند غولدا مائير عندما تهمل وتعزل الدور الفلسطيني في المقاومة، اثناء ما تسميه حرب الاستقلال، بكل ملامحه وبطولاته وشهدائه وتركز على دور بعض الحكام العرب أنذاك...الذين كانوا أدوات طيعة في يد بريطانيا التي كانت حامية للكيان الصهيوني بعد أن أوجدته، تعتبرهم هم الخصم وتعتبر حربها ضد موجدتها وولية نعمتها بريطانيا وضد أولئك الحكام حرب الاستقلال.. وتستمر الأقلام وفنون الدعاية الاسرائيلية على الترويج لهذه التسمية والاحتفاء كل عام – منذ عام ١٩٤٨ – بما يسمى عيد الاستقلال وتحاط حرب الاستقلال بهالة مقدسة من التضحيات والصمود والاستشهاد وتغدق حولها الصفات، ويشعل في محرابها البخور وترتل التراتيل وتنحر القرابين حتى تصبح – كأي شيء يريده الأعلام الصهيوني – حقيقة أكاديمية يبلعها بعض الناس على أنها حقيقة صادقة لا يأتيها الباطل من يديها ولا من خلفها!

شبيه أيضاً بالمقولتين السابقتين ما ترددده غولدا مائير في مذكراتها عن السلام... هذا السلام الذي هو عملية كاملة في التخطيط الصهيوني، عملية أفضل منها – في حقيقة الأمر – لمن يفهمها، الحرب بكل ويلاتها وشرورها، ان السلام الذي كان يعرضه الكيان الصهيوني – وتتبجح به غولدا مائير – بعد حرب: ٤٨، ٥٦، ٦٧، ٧٣، هو السلام الذي يقوم على احتياز الأرض. فبعد حرب ٥٦ طالبت غولدا مائير بسيناء وبكت دماً عندما أجبرها أيزنهاور – على مغادرتها والانسحاب منها. وبعد حرب ٦٧ آلت على

نفسها أنها لن تعود إلى حدود ٤٨ بعد أن فرطت يوماً بسيناء بعد ٥٦ فوقعت حرب ٦٧. ان منطق غولدا مائير في السلام منطق مدهش وعجيب يقوم على جدلية رهيبة ان لم تكن خبيثة! هذه الجدلية لها مسوغات واقعية ولها في القاموس الصهيوني المبني على الباطل مبررات واسباب وهو مغروسة في الضمير الصهيوني الذي يعرف في أعماقه أنه أقام دولة على أرض الغير وهي بايجاز على الوجه التالي:

فلسطين أرض عربية! الجماهير العربية والاسلامية من حولنا ترفض التخلي عن فلسطين بعامة والقدس بخاصة، وهذه قضية لا يمكن - كأنها القدر - التخلي عنها مهما كان هنالك من سلام أو صلح. إذن لا بد أن تكون اسرائيل قوية في عالم لا يفهم إلا منطق القوة... تقول غولدا مائير «العالم قاس وأناني ومادي» إذن لا بد من أن تكون اسرائيل قوية والقوة لا تأتي إلا عن طريق الأرض والبشر وتكتيل أكبر عدد ممكن من اليهود على أرض فلسطين وما جاورها، ولان العداء بين الصهاينة والعرب عداء تاريخي.. إذن فالمعركة معركة حياة أو موت ولا يلتقي أسدان في أجمة! إذن فأي سلام بلا أرض هو اضحوكة بل هو حماقة وسخافة لا تبرران! وعلى هذا فالعرب أمام خيارين كلاهما صعب الحرب أو الأرض... أو هما معاً... يقول أحد الكتاب السياسيين العرب:

اسرائيل تمارس مبدأ «الحرب ليست سوى امتداد للعمل السياسي» فهي تبادر بالحرب والردع والغزو والافتراس ثم تدعو إلى التسوية السياسية وتضع العرب دائماً وأبداً في موقف «دفاعي» ليس له ما يتنازل عنه من أجل التسوية سوى مزيد من الحق الفلسطيني الذي افترسه اليهود بالجملة والمفرق في عمليات الغزو والمفاجآت والردع والاختلاس ومبدأ الهجوم أفضل وسائل الدفاع ومبدأ خذ وطالب.

وتقول غولدا مائير في كتابها موضع الدراسة: «أعتقد أنا سنحصل على السلام مع جيراننا، ولكنني على يقين أنه لن يصنع أحد السلام مع اسرائيل ضعيفة. إذا لم تكن اسرائيل قوية فلن يكون هنالك سلام».

تشهد بهذا المذكرات وما طرحته غولدا مائير من موقعها كوزيرة خارجية وكرئيسة وزراء من عروض السلام التي لم تخل مرة من طلب في تعديل الحدود أو ما سمي بالحدود الآمنة واقامة المستوطنات وايجاد مناطق منزوعة السلاح وهكذا، مما يمكن ترجمته بالتوسع والعدوان والاستعمار... هذا هو السلام الذي يريده الصهاينة ولا عبرة بالانسحاب التكتيكي في سيناء، فإن عملية السلام ومفهوم السلام وفلسفة السلام في

العقيدة الصهيونية، ولا تتجاوز هذا المفهوم ولا يمكن أن تتجاوزه ونظرة بسيطة في تصريحات القادة الصهاينة من وايزمن إلى بن غوريون إلى دايان وغيرهم كثيرون تشهد بما نقول وما علينا الا أن نراجع كتب التاريخ.

قضية أخيرة تتكرر في مذكرات غولدا مائير، وتريدها أن تصل إلى الرأي العام العالمي وهي أن حركة المقاومة الفلسطينية والعربية هي حركة ارهابية - لا تشير غولدا مائير لحركات الأرغون وعصابات شتيرن بسوء - وتنعي على الكتاب الغربيين وصفهم للفدائيين بأنهم محاربون من أجل الحرية، وحركة عصابات مناضلة، ولعل من أكثر الأيام حزناً - كما تذكر المذكرات - وأسى لغولدا مائير يوم دعى ياسر عرفات إلى الأمم المتحدة وشهد له العالم ولحركة المقاومة العربية بعدالة القضية التي يناضل من أجلها، وأغدق عليه الكثير من التعاطف واستقبله بكثير من الحماس... أكثر من هذا فإن وجود العمل الفدائي كوجود - والذي يبدو انه لم يكن وارداً في التخطيط الصهيوني - هو أكثر ما يسبب لغولدا مائير من قلق مصيري تلمس ذلك عندما تمس موضوع الفدائيين مساً خفيفاً ولا تحاول أن تتحدث عنهم بصورة صريحة ومباشرة أمعاناً منها في تجاهلهم وطمس أية معلومة عنهم... وهو أمر له تفسيره في التخطيط ولعل تفسيره الأكبر في دخائل النفوس والحقد الأعمى.

وبعد فمن منطلق الحلم الذي تحقق في غفلة من الزمن كأنه معجزة، ومن منطلق المحافظة على هذا الحلم الذي تحقق والعض عليه بالنواجذ، ودفعاً للقلق المصيري الذي يعتمل في نفس غولدا مائير كما يعاني أي صاحب عقدة ذنب تقول غولدا مائير في خاتمة كتابها ما نصه.

«تعلمت عن الصهيونية في غرفة صغيرة في روسيا عبوراً إلى نصف القرن الذي قضيته هنا. حيث شاهدت أحفادي الخمسة ينشأون يهوداً أحراراً في بلاد تخصهم. وأريد أن لا تخامر أحداً أية شكوك عن هذا الأمر: أن أبناءها وأبناء أبنائنا لن يقبلوا بأقل من هذا». ونحن ايماناً منا بعدالة قضيتنا.. ومستشهدين بما كان في التاريخ من نهاية الصليبيين الغزاة المحتلين رغم أن الملك الكامل الأيوبي حاكم مصر أنذاك عقد معهم صلحاً وتنازل لهم عن القدس! نقول ما قاله مؤرخ عربي لبناني نشأ في فلسطين: «قد لا أعيش لأرى نهاية اسرائيل ولكني واثق من أن أحفاد أحفادي سيدرسون تاريخها وقد أصبحت أثراً بعد عين».

عندئذ، وعندئذ فقط، ستثبت فكرة تأميم الأوطان والتاريخ عدم جدواها وانها ضد طبائع الأشياء وسنة التاريخ.

العرب والعروبة والقومية العربية
من خلال مناقشة لكتاب مكسيم رودنسون

في هذا المقال مناقشة لزوايا الرؤية المختلفة لموضوع العرب والعروبة والقومية العربية.

والمناقشة تقوم هنا على ما ورد في كتاب «العرب» للمفكر الفرنسي مكسيم رودنسون، الذي يسعى وراء العلمية والمنهجية الدقيقة في البحث.

وفي ما يلي الجزء الأول من المقال:

هذا موضوع كبير الأهمية. وهو يستمد أهميته من كون أمة العرب في زمننا هذا أصبحت مستهدفة... يراد لها التمزيق والتشتيت والتغريب، كما يراد لها الهدم والتدمير، من أجل أن تقام على أنقاضها دويلات طائفية وعرقية، تقوم على الأقليات في كل مكان من أرض العرب الواسعة: مارونية ودرزية وعلوية وقبطية وكردية فينيقية وكنعانية وفرعونية وبربرية وأرمنية.. وعليه قس! وهذا مخطط قديم وشنشنة عتيقة بدأتها الشعوبية في تاريخنا الاسلامي، وغذاها الاستعمار، وتتبناها الآن بقوة الصهيونية واسرائيل ومن يقف وراءهما من دول الامبريالية المقنعة أو المكشوفة.

ومن أجل أن نوفي موضوع أمة العرب هذا حقه فسنحاول أن نناقش رؤية الآخرين له في مقولة جدلية، نضع فيها النقاط على الحروف، ونتوخى الموضوعية - ما وسعنا ذلك - وقد آثرنا أن تكون أول مناقشة لنا في هذا المجال لكتاب مكسيم رودنسون المفكر الفرنسي المعروف «العرب». ذلك الكاتب الذي فيما يظهر لنا ذا بصيرة لا غشاوة عليها في كثير من أحكامه، يسعى وراء العلمية والمنهجية الدقيقة في بحثه... كما أنه لا يخلو من رؤية صافية صادقة في أغلب أمره، رؤية تجاوزت كونه - كما يعترف في كتابه - من أصل أوروبي وخلفية حضارية وثقافية معينة، لا يمكنه التجرد منها والانفكاك عنها.

من هم العرب؟

في مقدمة كتابه الذي ظهر حديثاً يقول الكاتب: «أن هدفنا الرئيسي هو أن نفهم العرب».. و «أن أحاول أن أضع معياراً سوسيولوجياً (اجتماعياً)، مبنياً على معطيات تاريخية، في ضوء ما يمكنك أن تجيب عن الأسئلة التالية: ما هو العربي؟ ومن هم

العرب؟؟».

ويبتدئ الكاتب بالاجابة عن السؤال الثاني من هم العرب؟؟:

١ - العرب هم كل من يتكلم احدى مشتقات اللغة العربية ويعتبرها لسانه الطبيعي.

٢ - وهم كذلك من يعتبرون أصلهم التاريخي وخصائصهم الثقافية، خصائص ذلك الشعب الذي سمى نفسه بالشعب العربي.

على هذا فإن رودنسون يعتبر المعيار الأساسي، أو الرابطة الرئيسية هي رابط اللغة والتاريخ والثقافة المشتركة، ومن هنا فإنه لا يؤمن بأصل مشترك للعرب، فالعرب في نظره ليسوا مجموعة عرقية قومية ولا توجد سلطة أو مصدر في الأرض أو السماء تستطيع أن تثبت الأصل العربي المشترك، فهو يعتبر العرب أعراقاً وليس عرقاً واحداً... وأقواماً وليس قوماً واحداً... فهو ينسب عرب الهلال الخصيب إلى الآراميين وعرب مصر والجزيرة إلى الزنوج والأحباش وعرب الشمال الافريقي إلى البربر وسكان البحر المتوسط..

ومع هذا فإن الحقيقة العربية ضمن هذه العوامل والروابط التي ذكرها الكاتب تظل قائمة، ويفك كثيراً من الجدل القائم حول المصطلحات المتعددة التي تحيط بها: العرب والعروبة والقومية العربية.. وهنا يتكيء الكاتب على التاريخ فيتحدث عن الوعي بالعروبة عميق الجذور في التاريخ، والذي يمتد إلى ما قبل الاسلام، في العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة... وكيف أن كلمة «عربي» كانت تعود دائماً إلى نمط حياة: البدوي الذي يتكلم العربية ويعيش حياة التنقل والترحال.

عودة لصفاء الاحساس بالعروبة:

ومنذ عام ٦١٣م وبمجيء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فإنه وجه رسالته ودعوته أول ما وجه إلى عشيرته وأهله من العرب الأقربين.. كما أن الخلفاء من بني أمية اعتمدوا على العرب وأهملوا غيرهم من الموالي. وأثناء العهد العباسي سادت الاسلامية على حساب العربية لأن دولة بني العباس نشأت دولة اسلامية واستمرت على ذلك ولم تول العروبة كبير اهتمام. ومن هنا فإن مصطلح «عربي» أفرد فقط للبدو، وأصبح يطلق على أبناء القبائل لقب «أبناء العرب» أو «أولاد العرب» وشجع هذا الاهمال - أو أنه كانت نتيجة له - ظهور حركة الشعوبية في العصر العباسي تهاجم التفوق العربي. وجاء ابن خلدون في وقت متأخر نسبياً ينسب للعرب بالمفهوم السائد «البدو» كل الخراب

والتدمير والهدم الذي لحق بدولة الاسلام.

ولم يعد الاحساس بالعروبة قوياً صافياً يزاحم الرابطة الدينية إلا منذ بداية القرن التاسع عشر، الذي فيه ساهم محمد علي حاكم مصر كما ساهم المسيحيون في البحث عن هوية عربية تحتاج إلى استقلال سياسي.. أو كيان سياسي معين. ومن هنا كانت البدايات في الشعور أو اليقظة العربية في العصر الحديث.. ويختم الكاتب مناقشته لمقولة من هو العربي بأن يخطيء المعايير التي تعتبر الدين. بالرغم من الالتصاق العظيم لدى العرب به - هو الرابطة.. ويضيف إلى هذا قوله أن رواد الحركة القومية ودعاتها هم من المسيحيين الذين اعتبروا نبي الاسلام بطل القومية العربية. وبالرغم من أن قطاعاً عظيماً من عالم العرب هو قطاع للدين عليه تأثير كبير ويعتبره ايديولوجيته الرئيسية تعصمه من فجور الغرب والأوروبيين بصورة خاصة! فإن مفهوم القومية استمر في طريقه وتقدمه.

كما أنه يشكك بأن تكون الحضارة العربية هي الرابطة لأنه لا توجد حدود فاصلة بين الحضارة العربية والحضارة الاسلامية وعلى هذا فلا تعتبر معياراً أو مقياساً للعروبة.. (لنلاحظ هنا الفرق بين الحضارة والثقافة في مفهوم الكاتب).

النموذج القومي... أوروبي

ويختم الكاتب مناقشته عن من هم العرب بالقول:

«أخيراً ومن خلال مسيرة التاريخ في القرنين الأخيرين فإن ظروفاً جديدة ولدت وعياً معيناً لدى النخبة أو الصفوة كما ولدته لدى الجماهير ضمن حدود الأرض، وقد أخذ هذا الوعي شكل احساس قومي.. احساس في الانتماء إلى فئة معينة، ذات ثقافة معينة وموحدة، يحدوها الأمل في الوصول إلى شكل من الوحدة السياسية». ولعله من هنا يأتي دور القومية العربية في دراسة الكاتب.. والتي تشكل المقولة الثانية في هذه الدراسة، (والمقولة الأولى هي العروبة).

في نظر الفيلسوف مكسيم رودنسون النموذج القومي هو نموذج اوروبي:

أما كيف انتقل العرب من النموذج «القومي الاسلامي» إلى القومي العربي بالمفهوم الغربي فكان بجهود متعددة ساهم بها مفكرون اسلاميون، لا غبار على اسلاميتهم وعقيدتهم كما ساهم بها كتاب غير مسلمين.. وصبت جل معطياتهم الأيويولوجية في تيار القومية العربية:

جمال الدين الأفغاني الكاتب الناشط، الثوري ذو النزعة التآمرية والذي يبذر الأفكار كما يبذر الحب. استعمل كلمة الاسلام (بمعنى المجتمع الاسلامي) لأسباب تكتيكية. ومن بعده عبد الرحمن الكواكبي الذي كان أول من اقترح امبراطورية عربية.. كتب هذان الكاتبان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. وجاء من بعدهم الكاتب اللبناني الأصل أدمون رباط الذي عاش في باريس، وتلاه قسطنطين زريق في لبنان وسوريا ومن ثم عبد الله العلايلي مسلم من لبنان والحصري مسلم من سوريا. كما ساهم من بعد هؤلاء ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربي في سوريا في الأربعينات بدور كبير في وضع الأسس النظرية للقومية العربية..

انطلاقاً من رأيه في رفض أن العروبة تعتمد على أصل مشترك، فإن رودنسون يتهم هؤلاء الكتاب بأنهم «استخدموا الأدوات الأيديولويجة المفبركة في أوروبا» فنسبوا العرب إلى «قوم» كما نسب الألمان أنفسهم إلى قوم أو شعب وزعموا أن الشعوب التي هي عربية الآن مثل البربر والمصريين والأقباط هم عرب أقحاح لا غبار على عروبتهم عرب في أصولهم التاريخية منذ الأزل.

قومية المسلم الصالح

ومن هنا فإنه يستدرك ليقول «إذا اعتبرنا جميع العوامل - في تكوين العروبة - متساوية، فإن هنالك شعوراً غامضاً بأن قومية المسلم الصالح هي الأكثر مدعاة للثقة».

لم يكن المنظّرون هم الفاعلون الوحيدون في تكوين تيار القومية العربية في العصر الحديث. وانما ساهم أو ساهمت بها عوامل كثيرة تجلى من خلالها تعاطف وتعاون وتواجد عربي مشترك في صورة الاشياء، هذه العوامل هي من مثل ثورة الشريف حسين، إلى الثورات العربية الاقليمية بين الحربين مثل ثورة العراق ١٩٢٠ وثورة سوريا ١٩٢٦، وثورة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١ في العراق وكذلك ثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب ١٩٢٦.

ومن بعد الحرب العالمية الثانية كان لاستقلال تونس ١٩٥٦ والمغرب عام ١٩٥٦ والسودان ١٩٥٥ وحرب التحرير الجزائرية عام ١٩٥٤ أثرها الكبير على بلورة التوجه العربي والقومية العربية، وبدأ اثناءها الجهد العربي المشترك والتعاون العربي الواضح.. وكان للمشاركة العربية في ثورة الجزائر ومحاولة العدوان على الكويت ١٩٦١ واستقلال دول الخليج، دور فاعل ومؤثر في تعميق تيار القومية العربية.. كما كان هنالك

تعريب واضح لحرب ١٩٦٧ ضد اسرائيل ومثلها حرب ١٩٧٣.

قومية عربية متعددة الأبعاد

ويمضي الكاتب ليدعم مقولته في وجود قومية عربية متعددة الأبعاد مختلفة الاتجاهات أحياناً - ومع هذا تبقى قومية عربية واحدة! - فيتحدث عن انقسام القومية العربية إلى توجهين بارزين: الجناح اليساري والجناح اليميني.

الاتجاه الأول يمثله خير تمثيل عبد الناصر والناصرية (١٩٥٨ - ١٩٧٠) كما يشترك معه البعثيون.

والاتجاه الثاني تمثله السعودية، ويعتبر فيصل بين سعود النموذج المعبر خير تعبير عنه.

لقد تمكن عبد الناصر أن يحول القومية العربية والتي هي مزيج من توجهات وميول وآمال وأفكار غامضة، إلى فكرة عملية وتوجه تعتنقه الجماهير لمدة خمسة عشر عاماً تقريباً في المشرق العربي بوجه خاص والعالم العربي بوجه عام. لقد عزا عبد الناصر كل الويلات والشرور (الوحشية) التي لحقت بعالم العروبة، إلى الاستعمار والامبريالية التي طفقت تدبر المؤمرات المكيافيلية ضد العرب لتمنعهم من تحقيق الازدهار والوحدة. كما نادى عبد الناصر بأن تكون «الاشتراكية» العربية هي التنظيم الاجتماعي المقترح للأمة العربية. ومن هنا فقد أدرك الاستعمار والامبريالية خطورة هذا التوجه فنعتوه وصاحبه بالفساد والشوفينية القومية الشبيهة بالقومية الجرمانية...

ولا يتركنا الكاتب في حديثه عن هذا التوجه الناصري في القومية العربية قبل أن ينعي على الناصرية ديكتاتوريتها ونظامها البوليسي الذي لعب دوراً سلبياً في تعميم هذا التوجه وترسيخه ونجاحه نجاحاً تماماً... لكن مما لا شك فيه أنه ترك رواسب عميقة وساهم مساهمة كبيرة - على مستوى الجماهير على الأقل - في التقارب العربي، وبلورة معنى الأمة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج.

أما السعودية فقد أدلت هي أيضاً بدلوها في معركة العرب الأيديولوجية، فطرحت الاسلام كرابطة أساسية بين العرب، وكان فيصل المسلم السلفي، والذي يدعو إلى التحديث بشراسة وقوة، ومع ذلك يعارض التغيير الاشتراكي، هو راعي هذا الاتجاه والداعية الأول له في عالم العرب والاسلام.

هذه هي المقومات الحديثة والركائز الأساسية على الجبهتين النظرية والعملية، السياسية والاجتماعية التي يذكرها الكاتب كمنطلقات وممارسات للقومية العربية الحديثة.. هذه القومية العربية التي حلت محل العروبة ذات الطابع العام والغائم.. على أن الدارس المتفحص لهذه المقومات والركائز يأخذ على الكاتب أنه أهمل - ضمن مقولته في تحديد عالم العرب جغرافيا بأنه يمتد من المحيط الاطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً. كما يشمل غرب الحدود التركية والحدود الايرانية كما يصل إلى جنوب السودان في افريقيا ويشمل موريتانيا في أقصى الغرب وعدن في أقصى جنوب الجزيرة - أقول أنه أهمل طروحات فكرية أخرى في هذا العالم، وهي طروحات أساسية.

الأيديولوجية الاسلامية

فهو لم يتحدث عن الأيديولوجية الاسلامية النابعة من الجماهير التي لها اصالتها ومفكروها على مستوى العالم العربي والتي كان من دعاتها - نذكر ولا نحصر - حسن البنا وعبد العزيز الثعالبي وعبد العزيز بن باديس وسيد قطب، وأتى يعززها في الوقت الراهن تيار كبير هو تيار الصحوة الاسلامية والذي يدعو إلى أن تكون الرابطة الحقيقية في عالم العروبة هي رابطة الاسلام. والتي يقول أتباعها أنه إذا كانت العروبة هي الجسد، فإن الاسلام هو الروح لهذا الجسد. حقاً اننا لا نلمس من الكاتب عداء أو تحاملاً نحو الاسلام، ندرك ذلك في لمسه الجميل للأشياء عند الحديث عن رسول الاسلام وتركيب المجتمع العربي من الناحية الثقافية، ولكن ضمن الاطار الجغرافي لعالم العرب الذي تحدث عنه الكاتب هناك تيار أصيل لا يمكن لأي باحث أن يغفل عنه هو تيار أيديولوجي خاص بها هو الاساس الاسلامي، ايذاناً وانتظاراً للحلقة الثانية، وهي الدخول في الدائرة الأكبر الدائرة الاسلامية والتي تشمل العالم الاسلامي الأوسع من المحيط إلى المحيط! ولكن مما قد يشفع للكاتب أنه ابتداء فرق بين العروبة والقومية العربية والاسلام ولم يعتبر الاسلام رابطة! ولا ندري مدى مصداقية هذا الزعم، كما لا ندري مدى صحته، لا سيما وأن انصار التيار الاسلامي في العالم العربي يعتبرون أن محور التاريخ العربي من لدن محمد صلى الله عليه وسلم إلى الآن هو الاسلام.

والطرح الآخر الذي أهمله الكاتب هو الطرح اليساري المجرد، أو الطرح الماركسي الذي لا يعتبر القومية العربية - يقول ذلك من منطلق عربي أيضاً - سوى عاطفة، وأن العلائق الاجتماعية، والروابط الطبقية هي الأهم في تاريخ العرب، وعلى هذا فإن القومية

العربية لا تصمد إلّا كعاطفة قومية - وليس كأيديولوجية - في السير نحو الأممية والعدالة الاجتماعية.. حقاً أنه أشار لهذا التيار اشارات قليلة... ولكن على المستوى النظري، ومن خلال التصنيف النظري والعملي أيضاً.. فإن المؤشرات الأيديولوجية الرئيسية لدينا في عالمنا العربي هي ثلاث - بغض النظر عن معتنقيها وأعدائها - القومية والاسلام والماركسية.

المستقبل العربي

ومهما يكن من أمر فإن الكاتب لا يغادرنا حتى يجلو لنا صورة المستقبل العربي بعد أن تحدث عن الحاضر ومقوماته:

يقول الكاتب: لقد حثت الأيديولوجية العربية على الوحدة ولكن مع هذا فلا يزال التقسيم سائداً.ولكن ستبقى اللغة المكتوبة بتراثها العظيم ورابطة التاريخ المشترك وبعض الخصائص الاجتماعية المشتركة، ستبقى هذه عوامل توحيد.. تحدو أصحابها نحو ادراك غاياتهم في التعاون والتكامل.

ولكن ماذا عن المستبقل الاقتصادي؟ يقول مكسيم رودنسون، أن العرب الذين يشكلون ٣,١ بالمائة من مجموع سكان العالم يملكون ثلث احتياطي العالم من الفوسفات، وكيمة كبيرة من احتياطي البترول والغاز والنحاس والزنك والفحم والبوتاس والحديد والمنغنيز والرصاص.

وعلى هذا فإن السوق العربية الداخلية مؤهلة خير تأهيل لاقتصاد ذاتي مستقل. ولكن الضعف الأساسي في الاقتصاد العربي هو في انتاج الغذاء. فعشرين بالمائة من مساحة العالم العربي مستغلة مقابل ٤٧ بالمائة في الولايات المتحدة على سبيل المثال. وليس هذا الكاتب وحده هو أول من يقرع ناقوس الخطر بما يتعلق بالأمن الغذائي في العالم العربي. فقد سبقه وواكبه في هذا الرأي كثيرون ليس هنامجال ذكرهم. على أن الكاتب مسلحاً بسلاح التفاؤل، يقول أن الفرصة أمام العرب لم تفت، ولا يزال بامكانهم استغلال النفط والتكنولوجيا في استصلاح الأراضي وزراعتها.

عالم العرب اذن تتقاسمه ظاهرتان. ظاهرة التخلف والفقر والبؤس والمصائب وهذه هي الظاهرة الأعم، وظاهرة أخرى هي ظاهرة الغنى والاكتفاء وتوزيع الثروة بصورة عادلة وكافية في دول الخليج البترولية.. على أن المجال متسع لأن يمد الأخ الغني يده للأخ

الفقيرا

وفي الختام يجيب الكاتب على السؤال الثاني الذي أشرنا إليه في بداية هذه الدراسة، ما هو العربي؟ويجيب على هذا بقوله، أن العربي يعتز بشرفه أكثر ما يعتز. وقد كان الشرف العربي قبل الاسلام - واستمر على هذا بعده - هو الدين الحقيقي والرباط الاجتماعي، كما أن لدى العربي نزعة صوفية وتوجه ديني أصيل. والعربي إلى هذا مغرم بالفصاحة ولا يعنيه كثيراً العلاقة بين الكلمة والحقائق المجردة. ويستشهد بالكاتب برأي لكاتب تونسي يحلل الشخصية العربية ويقول عنها: «أن المميز الرئيسي لهذه الشخصية هو العاطفة العميقة، التي يقمعها المجتمع بقسوة، والنرجسية العميقة أيضاً، والرغبة القلقة في الحوز على رضا الآخرين، والبحث الشديد عن المكانة المعتمدة على المظاهر، وأخيراً العدوانية التي تتوجه نحو أشياء مختلفة، ويعبر عنها بأساليب شتى» ويعطف الكاتب على هذا الرأي قوله، أنه إذا تخلص العربي من قلقه وفخفخته، فإن مقومات شخصيته الرئيسية، هي الكرم والنبل والدفء والعفوية والاستجابة لداعي المروءة التي تدعو إلى التضامن والنخوة والأخوة.

التراث العربي جدير بالاحترام.

وبهذه الفقرة يختم الكاتب كتابه النفيس:

«لقد تكشف العرب ويكشفون عن صفات جديرة بالتقدير العظيم، وفي احاديثهم اليومية فإنهم ينمون عن انسانية كبيرة. وعلى الرغم من أنه لا يوجد شعب يدعو إلى الاعجاب الكلي، وبدون أن يوجه إليه النقد، أو يحاط بالتأييد بدون شرط، فإن التراث العربي، عند القياس، ظهر أنه جدير باحترام جميع البشرية، وعلى هذا فإن مطالبهم الشرعية - أي العرب - يجب أن تلقى التعاون والتضامن».

وبعد فإن هذا الكتاب ليس الأول ولا الأخير من نوعه، فالمطابع تقذف كل يوم كتباً تتناول العرب والعروبة في مجالات وحقول متعددة: أيديولوجية وسياسية واجتماعية واقتصادية الخ. ولكنه مع هذا كتاب جدير بالدراسة، حاول صاحبه - ووفق إلى حد ليس بالقليل - أن يكون موضوعياً ويدرس العرب سوسيولوجياً وتاريخياً، كما أفاد كثيراًمن أراء غيره من الدارسين.

ولقد تحدث هذا الكاتب عن الحقيقة العربية - كما يراها - من زوايا متعددة

وبمنهجية تحليلية تركيبية تستحق التقدير والاعجاب.

لقد قدر الكاتب للعرب صفات ومزايا وتاريخ ومقومات وضعها تحت الاضواء بكثير من الانصاف والشمول. ولم يهمل الدين الاسلامي في المقولة العربية بالرغم من أنه لم يعتبره المحور الأساسي في الرابطة العربية.

لقد نسب الكاتب العرب إلى أعراق مختلفة وليس إلى عرق واحد، وبذلك نفى عنهم مقولة طالما رددها رواد الأيديولوجية العربية والقومية العربية. ومع ذلك فإنه يريد أن يقول لنا: حنانيكم فأي أمة في الدنيا تزعم وحدة الأصل، ولا يرد عليها بسهولة! ومنطقه في هذا أن رابطة الدم ليس من الضرورة بمكان، أن تتوفر لكل امة، ذات قومية، تحت الشمس.

الدولة العربية المرتقبة

لقد حاول العرب أن يأخذوا القومية على الأسلوب الذي صاغه الفلاسفة الألمان مثل فيخته وهردر، ولكنه يسارع إلى القول أن مفهوم القوم عند هؤلاء الفلاسفة لا ينطبق على العرب.

حقاً أن العرب لم يحققوا حتى الآن أهدافهم القومية، كما لم يحققوا الدولة العصرية، وأمامهم في هذا تحد كبير كما أن الزمن لا يرحم! ولذا فإنه يجب عليهم أن يحرقوا المراحل، لكي ينتقلوا من عالم التخلف إلى عالم الحضارة والتقدم. كما أن التحدي الصهيوني لا يزال ناقوساً يقرع في آذانهم ليل نهار، ان هبوا يا عرب فقد طال عهد الركود والنوم... وهناك رابطة ديالكتيكية جدلية بين التحدي الصهيوني والتخلف العربي وفشل محاولات الوحدة.. الأكثر من هذا أن هذا التحدي الصهيوني يريد أن يكرس التمزق والفرقة والخلاف وخلق دويلات الطوائف من أجل أن يسيطر على عالم العرب ويضرب صفحاً على عالم ودور العرب، ويغيبها في مجاهل التاريخ.

ان الشخصية العربية التي تملك معادن وكنوزاً هائلة من المروءة والشرف والبساطة والعفوية والنبل لا زالت أيضاً تمتلكها كثير من العقد التي تمنعها من أن تحقق تكاملها وانسجامها وابداعها وبالامكان تجاوز هذه العقد من أجل انسان عربي أفضل وعالم عربي أكثر تقدماً وازدهاراً وأفضل مكاناً بين أمم الأرض.

اننا في هذا العصر الذي يسوده التكتل على أساس قومي، لا نجد خيراً ولا باساً في

تعميق تيار القومية العربية، والتكتل على أساس منه، ليشمل العرب في عالم العرب الواسع لاسيما وان هذه القومية لم تنبت من فراغ، وتقوم على اسس راسخة في الوجدان العربي تعززها تجارب مشتركة كثيرة وتحدوها آمال كبيرة، وان بامكان العرب مع تعمق تيار الوعي وفهم تحديات العصر والتفاعل معها تفاعلاً ايجابياً استدراك ما ينقصهم في عالم الروح وعالم المادة:في عالم الروح على أساس من التراث العربي الذي درته الاسلام العظيم والقرآن الكريم. وفي عالم المادة على أساس من النهضة الاقتصادية والاجتماعية التي تتوخى العدالة والديمقراطية ولا تعارض مع روح القومية العربية السمحة في المساواة والاخاء والمحبة والجمال.

رؤية في الانتماء (١)
الوطن والقومية والعقيدة الدينية

سيراً منا على ما سبق أن قدمنا له بأن الوطن العربي والانسان العربي أصبحا على المحك في هذه المرحلة الحساسة، وأن هنالك خطراً كبيراً يشكك بحقيقة وجود هذا الوطن وكيانيته، تمهيداً لتصفيته وابتلاعه، من قبل العدو المتربص والجاثم على بعض أرضه، فإننا سنناقش في هذه الدراسة رأياً آخر للعلاقة بين العروبة والاسلام: من أين تستمد هذه العلاقة أصالتها وما ينبغي أن تكون عليه.

صاحب هذا الرأي المطروح للنقاش، هو الدكتور أحمد صدقي الدجاني، أحد المثقفين والمفكرين الفلسطينيين، كما أنه أحد العاملين في الحقل الوطني الفلسطيني من موقع متقدم - عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية - ورئيس الوفد الفلسطيني إلى مؤتمرات الحوار العربي - الأوروبي، ورئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، وهو هنا يريد أن يضع لنا تصوراً فكريا يخرجنا - مع غيره من التصورات البناءة - من المأزق الذي أدى بالجبهة العربية الى الشلل وجعلها ترواح مكانها، هذه الجبهة التي كان من أسباب شللها انشغالها بتناقضات جانبية، واهمالها التناقض الرئيسي والخطر الأول أو التحدي الرئيسي: التحدي الصهيوني، ذلك أنه اصطدم فيها دعاة العروبة والاسلام - ضمن تصادمات أخرى فتاكة - وما كان لهما أن يفعلا وهما يواجهان خطراً مصيرياً! فنحن وسيراً على شعار توجيه جميع البنادق نحو العدو المشترك، يجب تجميد كل الخلافات من أجل صف واحد عريض قوي مرصوص.

يطلق الدكتور أحمد صدقي الدجاني على دراسته اسم: «عروبة واسلام ومعاصرة»، وهو يحاول فيها - باخلاص كبير - حل معضلة العلاقة بين قضايا رئيسية، هي قضايا القومية العربية والاسلام في ظل موجة التحرير الكبرى، وموجة العلم التي تغمر العالم اليوم، والتي ابتدأت بعد الحرب العالمية الثانية.

ابتداء يرصد الدكتور الدجاني ظاهرتين رئيسيتين تقومان جنباً إلى جنب في تطور المجتمع العربي الراهن: ظاهرة الاحياء الروحي، وظاهرة القومية العربية. أما ظاهرة الاحياء الروحي وتشمل قطاعات كبيرة من العالمين العربي والاسلامي، فتدعو إلى مقاومة

التغريب، أو انها ترفض التحديث بمعنى فرض نمط الحياة الغربية على الوطن العربي والاسلامي، وتدعو إلى التمسك بالقيم الروحية، وإلى تحقيق التقدم العلمي وقرن النهضة الدينية بالنهضة العلمية.

أما ظاهرة القومية العربية، فهي نابعة من الفكر العربي القومي، الذي يعرفه الكاتب «بأنه فكر ينطلق من الايمان بتحقيق الانتماء القومي لأمة عربية واحدة، وهو يدعو إلى توحيد الوطن العربي، وتحرير الأجزاء المحتلة من هذا الوطن، وفي التقدم به، وفي تحديد مكانه في العالم».

ولكن ما يأخذه الكاتب على هاتين الظاهرتين، وينتقده فيهما، هو وجود خلل في فهم العلاقة بينهما عند قطاع ليس بالقليل من المثقفين في الوطن العربي. وهذا الخلل هو السبب في طرح المشكلة التي يعالجها الكاتب في كتابه، بل السبب الرئيسي وراء كتابته اياه.

ومن أجل توضيح الحاضر والقاء الأضواء الساطعة على المستقبل فإنه يعود بنا إلى الوراء قليلاً أو كثيراً، ليحدثنا عن القومية العربية والاسلام، وكأنه يريد بذلك أن يعطينا خلفية عن أعماق المشكلة، أو تاريخ المرض، كما يقول الأطباء أو الخلل كما يسمه الكاتب.

فالفكرة القومية قد ظهرت في القرن الماضي، ولم يكن ظهورها بدرجة واحدة في مختلف مناطق الوطن العربي.

وساهمت في وضوحها تحديات مختلفة منها تحدي الضعف الداخلي، وتحدي الاستعمار الغربي، والحركة الصهيونية، وظهور الحركات القومية في اوروبا، وظهور حركة التتريك في تركيا. كما تأثرت الفكرة بوجود عرب لا يدينون بالاسلام، نادوا بأخذ التجارب القومية الغربية، التي تفصل بين القومية والدين. وفي الوقت نفسه نجد أن حركة اليقظة العربية في البلاد العربية الأخرى، وحتى في بلاد الشام قرنت بين العروبة والاسلام. حدث هذا في مصر والجزيرة العربية، وبرز ذلك بشكل حاد في المغرب حين تحددت العروبة من خلال الاسلام، وهو بهذا يريد أن يقول أن القومية العربية دخلت المجتمع الاسلامي، وتداخلت معانيها في كيانه بفهم أو بآخر. ولم تحسم العلاقة بين الدين والقومية، حتى الآن.

بعد هذه الخلفية، والعود إلى الوراء من قبل الكاتب، فإنه يعود ليشخص الخلل والمشكلة التي أخذت شكلاً حاداً بدا في مواقف دعاة القومية من الدين، وطرح هؤلاء مقولات تضع الفكرة القومية في مواجهة العقيدة الدينية. وبالمقابل كان رد فعل دعاة الفكرة الاسلامية على أولئك حاداً هو الآخر فاعتبروا الفكرة القومية دعوة إلى عصبية يأباها الاسلام. وقد تنامى الخلل وتزايدت اثاره السلبية، واتسع الخرق فيه على الراقع – كما يقال – إلى درجة أن طرحت شعارات من مثل «أنا عربي قبل أن أكون مسلماً» وهو شعار يصفه الدكتور الدجاني بأنه شعار لا يستند إلى منطق حين يربط بين الانتماء والعقيدة الدينية بعلاقة زمنية. وبالمقابل وفي حماة الحماس وازدياد حرب المهاترات طرح الاسلاميون شعار «أنامسلم قبل أن أكون عربياً». وقد ارتبط بدعاة هذين التوجهين من يسميهما الكاتب بالانغماسيين والانكماشيين وهما الجناحان المتطرفان لكل منهما، فالحضارة الغربية التي ولدت ردود أفعال لدى من يتعاملون معها، كان أحد ردود الأفعال نحوها، هو ظهور تيار الانغماسيين، الذين وان قاوموا الاحتلال الغربي إلا أنهم اعتقدوا بأن تقدمهم مرهون باستعارة الفكر الغربي، فكان أن عمدوا إلى التغريب، وأما رد الفعل الآخر، فقد تمثل في الانكماشيين، الذين قاوموا الاحتلال الغربي، وحسبوا أن نجاحهم يكمن في التقوقع على أنفسهم والفرار إلى ماضيهم.

وهذان التياران المتعارضان والمتصلبان هما اللذان منعا جهود التقارب وبناء جسور الصلة الوثيقة بين العروبة والاسلام، ولو أنه جرت محاولات بهذا الاتجاه في الخمسينات والستينات من هذا القرن.

ولكن، الكاتب وبأصالة كبيرة نابعة من معاناة وطنية حتى الأعماق، وبشعور كبير بالمسؤولية يحل هذا النشاز في الصورة العربية الاسلامية، ضمن أطر الانتماء الأصيل للوطن والأمة والعقيدة. هذا الانتماء الذي ان عاناه الانسان بطهارة وصفاء، فإنه كفيل بحل جميع العقد التي تعترض وجوده الذاتي والقومي والعقائدي والانساني.

فانتماء الانسان العربي يتحدد من خلال دوائر عدة في وقت واحد. فهو ينتمي لأسرة تعيش في حي من مدينة أو قرية أو نجع، ومن ثم ينتمي إلى قطر بعينه، وهذه دائرة أولى. وهو من خلال انتمائه لهذا القطر انتماء انسانياً أصيلاً، فإنه ينتمي إلى الوطن العربي ككل، باعتبار ذلك القطر جزءاً من هذا الوطن، وان شعب هذا القطر جزء من الأمة العربية، وهذه دائرة ثانية. وهو ينتمي، في الوقت نفسه، إلى الحضارة العربية الاسلامية، التي يعيش في ظلها، الانسان العربي، مع أوطان أخرى مجاورة تدين

بالاسلام، وهذه دائرة ثالثة.. وأخيراً هو ينتمي إلى الانسانية جمعاء، من مختلف أمم العالم، وهذه دائرة رابعة.

ونظرية الدوائر، دائرة مركزية ودوائر أخرى أكبر منها، وتلتقي جميعها في مركز واحد، تحدث عنها مفكرون وسياسيون مختلفون، وأوضح بعض الأبعاد فيها جمال عبد الناصر في كتابه «فلسفة الثورة»، عندما تحدث عن الدائرة المصرية والعربية والاسلامية، والذي اوضح أيضاً أن هذه الدوائر يفضي بعضها إلى البعض الآخر، بتلقائية وعفوية هي أصالة التكوين الحقيقي للوجود العربي الاسلامي.

على أن الكاتب يضرب على وتر حساس في نفسية المواطن العربي الذي لا يريد أن يتخلى عن وطنه القريب، ولكنه مع ذلك يحس بانتماء لوطن عربي أكبر، وهو في الوقت نفسه ابن حضارة عربية اسلامية مركوزة في كيانه وتحدد كثيراً من أبعاد سيكولوجيته وسلوكه الواعي وغير الواعي ولا انفكاك له منها.. وهو يريد أن يوضح أنه هذه المقولات الثلاث: الوطنية والقومية و الاسلامية تتعانق في ضمير الفرد العربي – إلى حد كبير – تعانقاً يجعل منها في النهاية أكسير وجوده، وحقيقة كيانه. وهي ان بدت منفصلة في الظاهر إلا أنها في واقع الأمر مجتمعة.. ليست ثلاثة وانما هي واحدة.. او ثلاثة أقانيم في اقنوم واحد!. فالعربي بمقدار ما هو ابن وطنه، هو ابن لقوميته والروح – أو الأنا الأعلى – في هذه القومية هو الدين. والبناء القومي لا يمكن أن يقوم إلا على اساس من التاريخ والحضارة، التي هي الأرضية العربية الاسلامية للوجود القومي.

رؤية في الانتماء (٢)
فهم العقيدة مع حقائق العصر

الكاتب يدعونا إلى أن نحقق أصالتنا المحلية، ان أردنا أن نحقق أصالتنا القومية والاسلامية، والوصول بذلك إلى مرحلة العالمية. وأنه لا وصول إلى مرحلة العالمية أو الانسانية إلا بمعاناة الظروف المحلية وتحقيق الأصالة الخاصة أو الذاتية. ونحن في ذلك كالكاتب العبقري الذي يصل إلى المستوى العالمي من خلال معاناة ظروف بيئته،والكتابة عن أبناء جلدته وأهله، وطبيعة أرضه وسمائه، ونتوءات هذه الطبيعة ومناحي الجمال والسمات البديعة الخاصة فيها، فهو في النهاية منها وهي منه، وعندما يعانقها بعشق ويلتصق بها بأصالة وقوة، ويتفاعل معها باخلاص يكون الابداع يكون الخلق ويكون التجديد ويكون الصدق والاضافة العظيمة. والمقابل الموضوعي لهذا التوجه في فكر الدكتور الدجاني هو أنه يريد أن يقول لنا: لا تتنكروا لأوطانكم الخاصة، لأن العدو الصهيوني يريد فكفكة هذه الأوطان والخروج بأهلها عن دوائر الانتماء الأصيلة، التي تبدأ بالوطن مروراً إلى الأمة في ظلال من العقيدة والحضارة، ففي تكامل الكيانات الوطنية على مستوى فردي تكامل للكيان القومي، وفي تكامل الكيان القومي على أساس من العقيدة تكامل مع العالم الاسلامي، الذي نلتقي معه في ظل الحاضرة الاسلامية المشتركة. من هنا فإن العدو الصهيوني لا يريد لاقطار الوطن العربي أن تحقق أصالتها الذاتية وتكاملها ووحدتها وتجانسها على مستوى الوطن الواحد، لأنه لا يؤمن بأن هذه الأقطار تنطلق من وحدة وطنية أو قومية أو حضارية، بل أن كلا منها مجموعة أعراق ومذاهب وطوائف وحضارات.

مرحلة جديدة للمخطط الاسرائيلي:

ومن أجل أن يقرب الكاتب لنا الأمر يضرب المثل بلبنان، ومخططات العدو الصهيوني في ضرب وحدته الوطنية. ويشير الكاتب في هذا الشأن إلى دراسة اسرائيلية معينة نشرتها - على شكل يوميات - السيدة ليفيا روكح وتتحدث هذه اليوميات عن اجتماع يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٥٤ بين بن غوريون وشاريت ولافون ودايان، تبلور فيه اقتراح محدد لخلق متاعب في «أكثر الجيران أمناً وهو لبنان»، بعد أن كانت المجموعة، قد

خططت لغزو سوريا ومصر.

وتقول الكاتبة أن شاريت قد اعترض، فرد عليه بن غوريون بعنف موجهاً إليه اهانات متلاحقة، منها افتقاره للجرأة، وصغر عقله وضيق أفقه. قال شاريت «لا نملك المال اللازم» فقال بن غوريون «المال يتم توفيره. إن لم يكن ذلك من الخزانة، فمن الوكالة اليهودية نأخذه» وختم قائلاً «عندما يحدث هذا فإن تغييراً سيأخذ مكانه في الشرق الأوسط».

وعلى هذا فقد بدأ المخطط الاسرائيلي مرحلة جديدة بعد حرب ١٩٦٧ التي أرادت بها الحركة الصهيونية تمهيد أرضية «التغير الحاسم في منطقة الشرق الأوسط»، على أساس من الطرح القائل أن هذه المنطقة كانت مهد حضارات متباينة قامت في وقت واحد، وموطن شعوب مختلفة ومتعددة، وصولاً إلى تبرير وجود اسرائيل. ويرسم هذا الطرح قيام مجموعة دول تبني على أساس طائفي تحقق بلقنة المنطقة. وينتهي الكاتب على أساس من هذا الطرح إلى اعلاء شأن الهدف الكبير الذي صار عنوان قضية لبنان، ألا وهو :«وحدة لبنان وسلامة أرضه واستقلاله وسيادته وانتماؤه العربي». وهو يعتبره هدفاً مقدساً يجب احتضانه والتشبث به بقوة، لأن زعزعة الكيان الوطني الداخلي لأي قطر عربي معناه ضرب أسفين في الهيكل الكبير للكيان العربي العام، وبالتالي الكيان الاسلامي، ذلك لأن الوطن العرب هو «قلب العالم الاسلامي النابض باعتباره موطن العقيدة وموطن الأماكن المقدسة» كما أنه من الوجهة الجغرافية «النواة النووية في الاسلام» وهو من الوجهة الحضارية «كيان مؤثر وموح».

وفي صدد معالجة القضية اللبنانية ذلك الجرح النازف الراعف في كياننا العربي الآن، يقول الدكتور الدجاني الذي ألف كتابه قبل الغزو الصهيوني لبيروت، بما حمل من نتائج وبيلة على كيان لبنان، يقول ببصيرة ثاقبة قولاً لا يزال يحمل مضموناً ومصداقية كبيرة: «ينبغي أن ندرك انطلاقاً من فهمنا للمرحلة الراهنة أن العدو الصهيوني سيحاول عرقلة حل الأزمة اللبنانية وعرقلة التقدم على طريق حل قضية فلسطين، متابعاً سياسته في هذا المجال. ولنا أن نتوقع والحلقة تضيق على خناقه أن يعمد إلى القيام بتحرك عسكري، وتآمر سياسي في ساحة لبنان».

بين الوحدة العربية والتضامن الاسلامي:

وفي مرحلة أخرى من هذه الدراسة القيمة التي للعقل فيها دور كبير وللعاطفة دور

ضئيل، يقول الدجاني أن وضوح علاقة القومية العربية بالاسلام على صعيد الانتماء الاسلامي.. هو ينبه هنا إلى أننا ينبغي أن نفكر في هذه المسألة، باعتبار أن عالمنا المعاصر هو علام الكتل الكبيرة، وعالم ثورة الاتصال، وعلى هذا فإننا لا ينبغي أن نقع ضحايا لعقدة الحذر من أن شعار التضامن الاسلامي، استخدم خلال عقدي الخمسينات والستينات لغرض سياسي من قبل قوى خارجية استعمارية، وجهته إلى التصادم مع النضال من أجل الوحدة العربية. وعلى هذا فهو ينتهي إلى أن التضامن الاسلامي ينبغي أن ينظر فيه إلى الدين ليس كقومية، وانما هو عقيدة تجمع بين قوميات، وهذا الطرح شرط أساسي للنجاح وإلا كان مصير الدعوة إلى التضامن الاسلامي مثالاً لمصير الدعوة إلى الجامعة الاسلامية، التي أخفقت لأنها لم تلب النزوع القومي ومتطلبات النهضة. وهو مع ذلك يتوقع بروز اتجاه في الوطن العربي وفي العالم الاسلامي يدرك العلاقة الوثيقة بين الوحدة العربية والتضامن الاسلامي باعتبار أنهما وجهان لعملة واحدة.

وهو يعتقد – كمناضل فلسطيني – أن هذا التوجه سيكتسب قوة ومتانة عندما يوجه جهوده نحو الجهاد من أجل تحرير فلسطين التي هي أرض الزاوية في العالم الاسلامي، والتي يتجسد فيها الخطر الذي يتهدد الوطن العربي والعالم الاسلامي.

من هذا المنطلق فإنه يطرح هذا السؤال الحساس الذي يوجه إلى القوى الاسلامية الأساسية في خريطة العالم الاسلامي السياسية: هل سينجح الحكم الاسلامي في ادراك العلاقة التي تقوم بين القومية العربية والاسلام؟ كما أنه يسأل سؤالاً آخر: هل يتمثل هذا الحكم روح العصر ولغة العصر فيحسن التعامل مع حقائق العصر. ويجيب فيما يجيب عليه، بالقول أن مسؤولية رجال الفكر في الوطن العربي والاسلامي وأهل الحلّ والعقد عموماً أن يتكاتفوا لصنع الاجابة الصحيحة.

ولعمري أن هذا السؤال لعظيم الأهمية، بل لعله أهم سؤال تطرحه الدراسة وكل دراسة. ذلك أن الغارة على العالم العربي والاسلامي والتي وضعت رأس حربتها في قلب فلسطين العربية، أرض الاسراء والمعراج والأقصى والصخرة المشرفة، أولى القبلتين وثالث الحرمين، والتي تنذر بشر وبيل، وبأنها ستأكل الأخضر واليابس، وتجتاح عالم العرب والاسلام وتفكك كيانه خطوة خطوة، وتزدرده قطعة قطعة! هذه الغارة تفتح أعيننا على حقيقة حل المعضلة العربية الاسلامية من خلال ادراك، أن لا حل بالسيطرة والقوة والفرض والاستبداد، وانما بالتعايش الأصيل. وأنه حتى نخلص من هذه الكماشة التي أطبقت على العالم العربي من الشرق والغرب، فإنه ينبغي مراعاة السمات الخاصة لكل

قطر، ولكن مع ذلك فإنه ينبغي عليه أن يلتقي مع الأقطار الاخرى في ظلال العقيدة السمحة الكفيلة باستيعاب الجميع في النهاية في جبهة واحدة قوامها عدة جبهات على أرضية مقاومة الخطر المشترك الذي لا يرحم، والذي يتربص بكل واحد منها على حدة كما يتربص بها مجتمعة!

البعد العالمي

ولا يغادرنا الكاتب إلا بأن يضع الصورة العربية الاسلامية ضمن الصورة الكلية العالمية أو الانسانية، فالكاتب الذي عانى تجربة قيادة الفريق الفلسطيني في الحوار العربي الاوروبي وأثار اعجاب المفكرين الغربيين بقوة منطقه، وبلاغة حجته وموقفه، لا ينسى البعد العالمي في دراسته. فهو ينادي بأن موجة التحرير لا بد أن تبلغ مداها، فتبلغ كل بلد مستعمر يعاني من الاحتلال وتدفع بعيداً بالمستعمرين الغزاة فيعودوا إلى أوطانهم. وعند ذلك يصبح بمقدور الانسانية أن تقضي على شرور الحرب وتوطد دعائم السلام وتوظف منجزات ثورة العلم التكنولوجي لاسعاد الانسان، بتوفير الأمن الغذائي واطعام كل فم، وبتوفير الأمن النفسي والقضاء على الخوف، وباطلاق طاقات الانسان ليستشرف آفاق الثورة العلمية في هذا الكوكب المعمور وفي هذا الكيان الرحيب...

وبعد، فإن الكاتب، بمنهجية صادقة، عالج الأمور الجزئية في الواقع العربي الاسلامي الراهن وانتهى من خلال التحليل والمناقشة إلى أمور كلية ومفاهيم عامة. كما أنه وظف هذه الأبعاد الكلية لالقاء الأضواء على الأمور الجزئية، ولاحظ أن العلاقة بين الجهتين الكلية والجزئية علاقة ديالكتيكية جدلية، فإذا صلح الجزء صلح الكل والعكس أيضاً صحيح إلى حد كبير. من هنا وبما أوتي من منطق سديد تمكن من المساهمة في طرح حلول لمشكلة أو قضية فكرية مستعصية من جملة مشاكل أو قضايا كثيرة يعاني منها وطننا العربي الاسلامي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه، لكن هذه الأفكار ومثيلاتها تظل تشكو من أمر أساسي ألا وهو عدم التطبيق أو كما قال أحدهم: عدم اتخاذ قرار أخلاقي بتحويل الكلمة إلى فعل! فمتى نبدأ الخطوة الأولى، ومتى يعلق الجرس: «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

مع مفكر عربي يعيش تجربة العصر

أن يكون المرء مفكراً أمر كبير الأهمية.. أو عظيمها.. وأن يعيش هذا المفكر تجربة العصر ويعانيها.. أمر جليل آخر.. فالفكر أولاً كما يقول المثل الفرنسي...

المفكر العربي الذي نعني.. والذي سيكون لنا مع فكره وقفة، هو الدكتور أحمد صدقي الدجاني: من فلسطين.. ومن المفكرين القلائل من وطننا العربي، وربما في العالم أجمع، ممن أتيح لهم أن يعانوا معاناة عميقة تجربة عالمنا الذي نعيش فيه، من منطلق المفكر أو الفيلسوف الذي لا غشاوة على بصيرته.. وهو الذي يعرّف الانسان بأنه مخلوق يفكر أو يتفكر.. وهو أيضاً، رغم انشغالاته المتوالية في عالم السياسة والعمل العربي العام (عمل الدكتور الدجاني عضواً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.. كما قام بمهمات سياسية متعددة على المستوى العربي والدولي)، إلا أنه لا يتوقف عن ممارسة فريضة وفضيلة التفكير: «كلما انغمست فيما يتطلبه النضال السياسي من اجتماعات وأسفار تستغرق وقتاً طويلاً، ازددت عزماً على الموازنة بينه وبين النضال الفكري استمراراً لدور أرتضيته لنفسي وهيأت نفسي للقيام به تعبيراً عن قناعة راسخة بالحاجة إليه في مسيرة امتنا لبلوغ أهدافها».

وهو، إلى هذا، يصدر في فكره، عن معاناة عملية، ومعايشة للأشياء والظروف... فلا يصدر أحكامه من برج عاجي.. وانما ينضج أفكاره ورؤاه على نار التجربة.. المتواصلة.. والتي تجعله لصيق الحقيقة.. والواقع.. وحقيقة الأمر أن مفكرنا رحل طويلاً، شرق وغرب، كما يقال، شهد محاورات ومطارحات في مؤتمرات وندوات عربية وعالمية فهو أحد شخوص مؤتمرات الحوار العربي الأوروبي المرموقة.. والتي كان لها دور مشهود في تأصيل التوجهات والمنطلقات العربية فيه.. ممثلاً للقضية الفلسطينية والعربية.. وهو مشارك في جلسات الأمم المتحدة في الوفد الفلسطيني، وهو ضيف أو مشارك في كثير من المجامع العلمية والمعاهد.. كما أنه أستاذ أكاديمي عمل في كثير من الجامعات.. وهو إلى ذلك كاتب ومؤرخ له عدد من المؤلفات... وهو فوق كل هذا ذو تجربة سياسية كبيرة.. جعلته يلتقي زعماء عالميين.. في مستوى انديرا غاندي وكيسنجر وشيراك وكلود شيسون وسنجور فضلاً عن كثير من الرؤساء والملوك العرب...

هذه التجربة الطويلة العريضة، العميقة، الثرية الغنية، جعلت من مفكرنا ما هو فيه:

غنى وعمقاً واستشرافاً لآفاق المستقبل، وتجديداً وابتكاراً وتطويراً ومتابعة.. على أرضية صلبة من الأصالة والمحافظة على الهوية الحضارية والتكامل.. في وسط هذا العالم المتغير أو المتفجرا وزودتنا من خلال مؤلفاته.. والتي من بينها كتابه «حوار ومطارحات» بأفكار تستحق الوقوف عندها وتأملها:

ابتداء ينبغي أن نسجل لمفكرنا نظرته العريضة التي تتجاوز الحدود.. وان كانت تستند على قاعدة صلبة من الوطينة القومية.. فهو في الوقت الذي يقول فيه وطننا.. لا ينسى أن يقول عالمنا. وهو في كتاباته ومحاضراته وأحاديثه كثيراً ما يقول: أمنا الأرض.

ومن هذا المنطلق فإنه بمقدار ما هو حريص على مستقبل أمته العربية.. يعيش تجربة الانسانية عامة، وهمومها. وله في مجال نظراته الانسانية اجتهادات صائبة وتوجهات مخلصة.. يدرك مفكرنا أن عصرنا يعيش الجوانب التالية على جبهة العلم والفتوحات العلمية: انه عصر ثورة علمية بكل معنى الكلمة... أو أنه العصر الاكتروني «التقني الاكتروني» على حد تعبير بريجنسكي.. كما أنه عصر ثورة الاتصال.. فضلاً عن كونه عصر غزو الفضاء.. وسباق التسلح.

ومن هنا فهو يعيش الهموم والهواجس التي يعيشها أي مواطن لهذا الكوكب، كوكبنا، الأرض.. وهو في مؤتمر الأكاديمية المغربية، والذي هو عضو دائم فيها، وهي التي تقتصر على نخبة من أعظم العلماء والشخصيات الكونية، يورد لنا بتعاطف تساؤل الناقدين والمستنكرين لغزو الفضاء: «لماذا نذهب إلى القمر في الوقت الذي علينا أن ننجز أشياء كثيرة، ما زال علينا أن نقوم بها على كوكبنا الأرض؟» وهو في الوقت الذي يورد فيه قول رجل الفضاء المعروف، وأول من هبط على القمر، والزميل في الاكاديمية نيل أرمسترونج: «ان اكتشاف الفضاء هو أيضاً اكتشاف كوكبنا الأرض من خلال معرفتنا عنها بشكل مباشر أو غير مباشر» يورد في نفس الوقت تحذير الدكتور عبد السلام، الحائز على جائزة نوبل، والزميل في الأكاديمية نفسها حيث يقول: «أن الجانب الخيالي الذي يوحيه الفضاء، أو السفن الفضائية الطائرة إلى الانسان عن التفكير في الجانب العسكري. وقليلون هم الذين يعرفون أن ثلاثة ارباع الأقمار الصناعية التي تدور حول أرضنا هي للأغراض العسكرية من استكشاف واتصال ورصد لأحوال الطقس وانذار مبكر... وأن هذه التوابع التي تدور حول الأرض هي عيون القوات المسلحة وآذانها وأعصابها»...

يورد هذا بصفته مواطناً عالمياً أو لكل العالم.. رجلاً لكل الناس.. ولكنه مع هذا لا ينسى صفته العربية.. وهو هنا عضو مشارك في كثير من المؤتمرات العربية السياسية والثقافية والتاريخية... والفكرية.. ففي مقالة بعنوان «تحية للقاهرة ولندوة عربية تعقد فيها عن الأصالة والمعاصرة» يشيد بدور القاهرة الثقافي.. في مضمار الحضارة العربية.. كما أنه يحمد لها كونها ممثلاً للأصالة والمعاصرة في تطور عالم العرب.. وهو هنا - أي في النطاق العربي - من دعاة الابداع في وطننا العربي.. وهو يتبنى نظريات توينبي في الابداع ويعلي من شأنها وبخاصة منها نظريته حول نشوء الحضارات وشرحه - اي توينبي - لمرحلتي العكوف والعودة في حياة الأفراد «النخبة»، وقوله أن التجاوز قد يكون بالرحلة إلى الخارج أو بالعزلة.. وتفسيره لدور النخبة في نشوء الحضارات . ودور «التقليد» في انحطاطها.. ومفكرنا الاستاذ الدجاني ينبه إلى أهمية القيام بدراسة للابداع في المجتمع العربي عبر العصور... والصراع بين الاجتهاد والتقليد في تراثنا.. كما ينبه إلى الدور الذي يمكن أن تقوم به المدرسة لتشجيع الابداع بين الأولاد بنين وبنات في سن المراهقة.. وهو يعرّف التربية أنها من الربو وهو النماء.

وفي وسط انشغالاته الانسانية والعربية، لا ينسى الدجاني وطنه، بل يحمل همومه على ظهره.. يشرق بها ويغرب! أينما ذهب وحيثما توجه.. بل لعل سر تفوق مفكرنا على نفسه.. هو معاناته لوطنيته، لمحليته، وتفاعله تفاعلاً خلاقاً معها وحتى الأعماق.. حتى وصل من خلالها إلى الانسانية.. كما يفعل أي مفكر.. أو فنان عظيم حين يعايش بيئة.. يعشق.. ويتفاعل معها بصدق.. ويصدر من خلال ذلك عن أدب وفكر وفن يمس من الناس - لصدقه واخلاصه وعمقه وأصالته - قلوبهم في كل مكان في العالم.. فهذا المفكر العربي.. يعتبر عصرنا هذا عصر التحرير.. وهو بالفعل كذلك.. ولكن تعاطفه مع حركات التحرر والتحرير لم يكن ليكون بهذه الصورة من القوة والتميز.. لولا أنه يعاني مثلما يعاني هؤلاء المقاتلون من أجل الحرية في كل مكان من العالم.. وهو إن كان يقدس شيئاً.. فهو يقدس المقاومة الوطنية.. ويتحدث عن هذا بملء فيه مع كلود شيسون وزير الدولة للشؤون الخارجية الفرنسي، فيقول له شيسون أنني أتعاطف مع مقاومتكم الفلسطينية، لأنني أنا نفسي قد اشتركت في مقاومة مماثلة في الحرب العالمية الثانية، ضد المحتل النازي لفرنسا.. والدجاني من هذا المنطلق أيضاً، يدافع عن حق تقرير المصير للفلسطينيين.. ويفسره على أحسن وجه، بأبعاده الثانوية الدولية المختلفة وهو ينادي به كحق لكل شعب في العالم.. ويقف وقفات صلبة شجاعة من مشاكل الوطن المحتل التي

يدافع عنها في المؤتمرات الدولية: مشكلات المياه والسكان،ومشكلات الاستيطان والمستوطنات، وهو يرى ببصيرة ثاقبة أن معالجة هذه المشاكل لا يكون إلا «بمعالجة قضية جوهر الصراع في المنطقة ولا تتم إلا باحقاق الحقوق الوطنية الثابتة لشعب فلسطين وهي حقه في تقرير المصير، وحقه في العودة، وحقه في اقامة دولته المستقلة.. انها لا تتحقق إلا بالتحرير»...

وهو يختم مناقشاته ومطارحاته وحواره بهذه الكلمات القليلة العدد العظيمة الفائدة التي تلخص بايجاز معبر ومؤثر.. مشاكلنا العربية أهداف أمتنا... يقولها بنفس الرائد والمستكشف.. في بيداء الحيرة العربية الراهنة «أن أمتنا لتعيش اليوم في طور انبعاث حضاري بعد أن نهضت وبدأت حركة اليقظة العربية فيها تشق طريقها قدماً. وهذه الأهداف هي تحرير أراض محتلة في وطننا وطرد الغزاة منها، وتحقيق التقدم، والقضاء على كل أسباب التخلف، وتوفير حرية المواطن في ظل وطن حر، وسيادة الشورى ومنع الاستبداد، والوصول إلى العدل الاجتماعي والقضاء على الظلم، وايجاد الحقائق الوحدوية في وطن مجزأ يتوق إلى الوحدة وتبليغ رسالته الحضارية إلى العالم اسهاماً في بناء حضارة العصر...».

قراءة في كتاب مفكر كويتي
حكايات من الوطن العربي الكبير*

يقول شاعرنا العربي: سافر ففي الأسفار خمس فوائد! وحقيقة الأمر ان في السفر فوائد كثيرة لا يكاد العد يحصيها!

وكاتبنا الشاعر الأديب أحمد السقاف، أمين رابطة الأدباء في الكويت، رجل يعنى بالسفر، وله من مهمته في أمانة «الهيئة العامة للجنوب والخليج العربي»، ما يدعوه،وما دعاه، إلى هذا السفر والترحال. إلا أنه ليس كأي مسافر آخر يكتفي بالمشاهدة فقط وانما هو يميل إلى الاختزان، اختزان المشاعر والأفكار والذكريات، حيث يسجل انطباعاته وأفكاره وذكرياته عما يزور ومن يقابل من الناس والأشياء.

ولقد خرج علينا هذا الكاتب بكتاب أسماه «حكايات من الوطن العربي الكبير» ١٩٨٠ هي أقرب إلى الأقاصيص القصيرة. ولكنها هادفة إلى معان أبلغ من مجرد القصة أو الحكاية. فهي – ان شئت – أحاديث في السياسة، ولنسارع هنا إلى القول ابتداء أنها السياسة الهادفة إلى التعرف على معالم الوطن العربي وقضاياه، كما أنها أحاديث في الأدب والفكر، والفكر القومي بالذات. فضلاً، أيضاً، عن أنها أحاديث في السياحة في الأرض العربية وارتياد مواقع الجمال في وطننا العربي غير المعروفة لدينا معرفة حقة حتى الآن!

والأستاذ السقاف ربما كان مؤهلاً للحديث في هذه الأمور أكثر من غيره. فهو، من ناحية، أديب وشاعر يملك أدوات الكتابة الفنية، كما يملك خيال الشاعر المجنح. وله في هذا المجال مقدرة مشهورة وتجارب مشهودة قرأ منها المواطن العربي، لاسيما على صفحات مجلة «العربي» الشيء الجديد المفيد، طوال السنوات السابقة.

ومن ناحية أخرى، فهو مفكر قومي.. حمل القضية العربية.. أو قل القومية العربية في رأسه وعلى كتفيه، وسار بها مراحل طويلة، وشرق بها وغرب! وكانت دائماً مسيطرة على بؤرة شعوره، وكان حمله لها يتسم بالاخلاص والتضحية.

★ تأليف الأستاذ أحمد السقاف.

ثم أن الاستاذ السقاف انسان مطلع، شديد حب الاستطلاع، ومن أجل هذا فهو محب للتنقل والترحال، يعيش تجربة ابن الربع الأخير للقرن العشرين.. عصر انفجار المعرفة وتشعبها، واقتراب أوصال العالم من بعضها بعضاً. وارتبطها ارتباطاً كبيراً. فلا تجد بلداً على مستوى الوطن العربي - وربما العالم الأجنبي - إلا وزاره السقاف، فوقف واستوقف.. وحدث وتحدث، وكتب ودون وتساءل وناقش. وعكس كل هذا في كتابه الذي بين أيدينا اليوم.

الكاتب والسياسة

ولنبدأ في حديث الكاتب عن السياسة. هنا نجد من الكاتب تعاطفاً صادقاً وأصيلاً مع مشاكل الأمة العربية النامية. ويظهر هذا من معاصرته ومعايشته لتجربة الانفتاح الكويتي المبكر - منذ أوائل الخمسينات - على دول الخليج، وبالذات الامارات والبحرين - وحرصه - مندوباً للكويت - على اعطاء هذه التجربة كل حضانة ورعاية ممكنتين. كالأب الرؤوم والأخ العطوف.. وفي كتابه صفحات نابضة ناطقة عن هذه التجربة التي أدت في حينها الغرض، وما زالت تؤديه في بعض المناطق - البحرين - حتى يومنا هذا. معونات ومساعدات وتعاطف وتواصل لا يحركها إلا الايمان بالأخوة الرابطة والمحبة الفائقة لهذه الثغور العربية الخليجية.

ويختص اليمن الذي يشرف الكاتب - كجزء من مهمته - على مكتب الكويت فيه بجزء غير قليل من اهتمامه، وهو يحدثنا هنا، عن ادراك الكويت لأهمية هذا الوطن اليمني - باعتباره جزءاً رئيسياً من الوطن العربي الأكبر - أهميته كمفصل أساسي ومقوم بشري واستراتيجي من مقومات كيان الجزيرة العربية بوجه خاص، والوطن العربي بوجه عام.

ويشيد الكاتب هنا - أيضاً - بدور الثورة اليمينة على الأئمة.. وبالجهد المصري الناصري في هذه الثورة التي وضعت اليمن - والذي لم يسبق له ذلك ومنذ مئات السنين - على درب التطور الحضاري، بعد أن كان نائياً عنه كل النأي. وبعد أن كان شعب اليمن في ظلام حكم الأئمة مهدداً بالفناء الكامل بعد مائة عام، كما شهدت بذلك طبيبة ألمانية عاشت في اليمن، في كتابها «كنت طبيبة في اليمن»، أصبح هذا الشعب يبشر بحياة عفية طيبة أو أنها تنأى به على الأقل عن الاضمحلال الكامل! لا ليس الأمر كذلك فقط، بل أن التجربة اليمنية ربما كانت تجربة واعدة بشكل كبير، لا

سيما إذا أوليت عناية أكبر وأهمية أكثر تتناسب مع أهميتها الاستراتيجية والديموغرافية. وهذان أمران تدركهما الكويت وتريد لهما أن يسيرا في الطريق الايجابي البناء، طريق التكافل والتضامن مع الخط العربي، ونحن على يقين بأن هذا الطريق، إذاما أعطي حقه وواجبه كاملين، فإنه حتماً سيعود باليمن إلىما كان عليه يوماً، «بلاد العرب السعيدة» ARABIA FELIX كما سماها المؤرخون الرومان.

ومما هو وشيج الصلة بحديث الكاتب عن السياسة، حديثه عن القضية الفلسطينية، يضعها في طليعة القضايا القومية التي يعالجها، وتتردد في جنبات كتابه، وحديثه عنها حديث الخبير المتعاطف، الذي عاشها وعاناها كما يعاني أي قومي مخلص قضية أساسية بمستوى القضية الفلسطينية. وسنتحدث عن بعض حديثه هذا في مناسبته من هذه الدراسة. وعلى وجه العموم فإن حديث الكاتب عن السياسة - بالمعنى الاستراتيجي القومي - لا ينفصل عن أحاديثه عن السياحة - بمعناها الروحي والمادي -، كما لا ينفصل عن حديثه عن الفكر، بل ان الأمر في حقيقته أن هذه الحكايات التي يحكيها الكاتب - وفي الظروف الراهنة بالذات - جلها أو كلها مسيسة. وهذا أمر لا يضيرها. بل على العكس أن من يعيش واقعنا العربي ولا يفكر فيه بصورة مسيسة، انسان قد تودع منه! وليس يعد في العير ولا في النفير!

حكاية قصيدتين

وعلى أية حال فإن ما يسرك ويدهشك في كتاب الأستاذ السقاف أنه يخوض في حديث الأدب والفكر، فيحدثك حديثاً جميلاً ويستوقفك منه احساس مرهف. وقدم راسخة ثابتة في الكلمة القوية. ولعله يستوقفك أكثر ما يستوقفك حكاية قصيدتين سبق للعربي أن قامت بنشرهما وأصبحتا من تراثنا الأدبي الذي يدرس في المدارس، وتنشأ عليه الأجيال. والقصيدتان هما «العصفور - الأصغر» و «الطفل المشرد»، وحكاية ميلادهما، كما يرويها الكاتب، قصيدة أخرى! هنا تجد العاطفة الجياشة والحب الكبير للانسان والحيوان والطبيعة.. وانكفاءة جميلة على الذات لادراك ما في عالمنا من أسرار، لا يدركها عادة إلا الشعراء! والعالمون.

قصيدة «العصفور الأصغر» يبدأها الأستاذ السقاف بهذا المطلع الذي يتحدث عن نفسه:

يا طير يا عصفور يا الأصغر

مالي إلى غيرك لا أنظر؟!

يهنيك ما يسبي ما يسحر

ومنظر يزرى به منظر

يا طير يا عصفور يا أصغر

ولقد ولدت هذه القصيدة تحت ظل شجرة في اليمن، جلس الكاتب - في احدى رحلاته - تحتها ليستريح من عناء السفر وعناء الطريق. وكانت محطة استراح فيها الكاتب إلى الماء والخضرة... ولكن الذي استأثر باهتمامه إلى درجة وجودية شيء واحد صغير.. ولكنه عظيم الأثر والتأثير.. ذلكم هو أمر عصفور حنا على ثلاثة من أبنائه العصافير، فراح يغذوهم وقد جعل من عشهم على عرف غصن شجرة - مكاناً حصيناً أميناً، فأنى بهذه الأفراخ، زغب الحواصل، أن تطالها يد أو تؤثر بها عوالم الطبيعة. وهو - أعني العصفور - دؤوب في ذلك، يغدو ويروح، والشاعر يرقبه بلهف وشغف، حتى تغدو هذه الأفراخ بطاناً بعد أن كانت خماصاً.. وسبحان الخالق! وتولد هنا القصيدة، حصيلة طيبة، وأطيب ما في رحلته تلك.. وتتناقلها الأيدي والعقول أثراً طيباً ولد في لحظة خلاقة وتناغم وجودي مذهل، في احدى رحلات الكاتب.

والقصة الثانية للقصيدة الثانية، نلمس فيها زخماً انسانياً وتولد في أحد شوارع القاهرة عندما يلتقي الكاتب مصادفة بطفل صغير.. أو قل شلوا من أشلاء قاع المدينة الفقير، ولا تطلب بقية الانسان هذه من الكاتب شيئاً إلا سد الجوعة ولقمة العيش! فهو - أي الطفل - قد قضى فترة - الله أعلم بها - لم يذق طعم الطعام، وليرجع القارئ إلى بقية القصة في الكتاب. كل ما نريد قوله هنا عنها أن الكاتب ينعى فيها على الانسانية أن يستأثر فيه الحيوان - عند بعض بني الانسان - بالاهتمام أكثر من الانسان! وكان الكلب هو السوبرمان والطفل هو الحيوان والأصح، الأقل شأناً من الحيوان!

يقول الكاتب من هذه القصيدة:

«جوعان لم يذق الطعاما

غدر الزمان به فهاما

متسربل بالبؤس يسحب

في تشرده عظاما

مات الذي يحنو عليه

فصار في عدد اليتامى

وتنكرت أم فما رضيت

معاناة الأيامى

وزواج بعض الأمهات

يكاد يفتتح الحراما»

إلى أن يقول:

«كم في القصور من الكلاب

تعيش في رغد ترامى!»

ناسك قومجي

وأما حديث الفكر فهو حديث الفكر القومي بالدرجة الأولى.. والكاتب ناسك متصوف في محراب القومية العربية.. ويحملها في عقله ووجدانه، حيثما ذهب.. ويطرحها فكراً ايديولوجياً وقضية أساسية حيثما وكيفما ناقش وحاور وحاضر وقابل.. وهو ينزه هذه القومية عن العنصرية ويسمها سمة انسانية.. وهي قومية اقرب إلى الرومانطيقية ان لم نقل الطوباوية منها الى الواقعية.. فواقع الحال في هذه القومية – مع الاعتذار للكاتب اخلاصه في منطلقاته وصدقه مع نفسه – يكذب المنطلق والمثال. وعلى كل حال فإن قومية الكاتب ليست قومية مجردة، وليست قومية علمانية، وانما هي قومية روحها وتاجها وفخارها الاسلام.. ومجمل القول أنه إذا كانت القومية العربية هي الجسد فإن الاسلام – كما يمكننا الاستنتاج – هو الروح. ويركز الكاتب هنا على أن البعد الاقتصادي والاجتماعي لهذه القومية ذو جذور عميقة في العقيدة الاسلامية. ولا نريد أن نقول هنا كما قالت الكاتبة الفرنسية سيمون دوبوفوار «أن أكثر الناس حديثاً عن العدالة الاجتماعية هم البابوات والديكتاتوريون» وانما الذي نريد قوله أننا نؤيد الكاتب

في أن من يبحث في الاسلام عن خميرة لمعالجات اقتصادية واجتماعية فإنه – لا شك – يجد نبعاً ثرا ومعيناً لا ينضب. على أننا ينبغي أن نذكر ايضاً أنه بمقدار ما يمقت الكاتب الأيديولوجية الماركسية باعتبارها عدواً أصيلاً للفكر القومي فإنه يرحب بالفكر الاسلامي الذي لن يتعارض يوماً مع العقيدة القومية. أكثر من هذا فإن الكاتب يعتبر القومية العربية والاسلام صنوين أو اقنومين في اقنوم واحد... معادلة ذات طرفين متساويين أو وجهين لعملة واحدة. وهو يرحب بالوحدة العربية الاولى كخطوة أولى واجبة تتلوها بعد ذلك خطوات على البعد الاسلامي.

ومهما يكن الحال، فإن هذا التفكير المنطقي الرياضي المعقول للكاتب قد يخالفه دعاة الفكرة الاسلامية، الذين يعتبرون هذه الفكرة الاسلامية البداية والنهاية على أرض العرب والاسلام في الوقت نفسه. وان عالم العرب والاسلام هو عالم واحد.. عالم الاسلام الواحد... فلا تمييز ولا فصل. وهنا قد يتساءل المرء أي هذين التيارين على حق!؟ التيار الذي يدعو له الكاتب ويعطي فيه للعرب أولوية خاصة باعتبارهم بضاعة الاسلام وأكثر الناس فهماً للقرآن مع عدم اغفال البعد الاسلامي العام، أم التيار الآخر التيار الاسلامي الذي لا يعني بالقومية العربية إلا باعتبارها بدعة من البدع وعادية ومستوردة من الفكر الغربي العلماني الذي استمد فكره من الأرض والطين... بينما التيار الاسلامي يريد أن يصعد بفكره إلى السماء! ليس من السهل الاجابة على هذا السؤال في هذه الدراسة السريعة، ولكننا نحمد للكاتب ادراكه لمقومات الوطن العربي ورغبته المخلصة في اصلاح بيتنا أولاً.. على ضوء من تعاليم الاسلام السمحة.. كما أنه لا ينسى أن يولي العالم الاسلامي اهتمامه باعتباره الاطار الأوسع للقومية العربية المؤمنة.. وفي النهاية لا نظن إلا أن العبرة بالعمل المخلص ولا يصح إلا الصحيح. ولعل خير ما نختم به هذه المناقشة لهذه القضية الشائكة هو أن نتساءل أيضاً: ألم يأن الأوان أن نتجاوز هذا النقاش إلى ما هو أفضل منه؟: ممارسة المبادئ الصالحة في القومية العربية والاسلام. وهذه الممارسة هي التي تهدينا عن طريق المعاناة والتجربة إلى الأيديولوجية الصحيحة... فالأفكار لا ينبغي أن تنبع من تصورات مجردة بل ينبغي أن يهيمن عليها التطبيق والعمل.

وعلى أية حال فإن هنالك مقولة أساسية في الكتاب ألا وهي أن الاسلام الذي نريد ويريد الكاتب هو الاسلام العصري – ان صح القول – الذي استوعب المشاكل العصرية فيضع لها الحلول... والتراث الحافز أو البناء وليس التراث المعوق أو الهدام.. وهو يورد على لسان الأستاذ خليفة الوقيان قاعدة ذهبية وهي أن: «الالتزام بالتراث وحده والابتعاد عما في هذا العصر من أشياء ضخمة تمس الانسان في الصميم جهل مضحك، والتزام المعاصرة والابتعاد عن التراث اجتناب لجذور الأمة وهذا عين الغباء».

لسنا نود أو نغرق في البعد الأيديولوجي للكاتب والكتاب ولكن اخلاص الكاتب للأمة العربية ومعاناته لمشاكلها وأمورها يبدوان واضحين في هذا الكتاب وهنا توجد مفاصل أساسية أو محاور أساسية تلمسها في الحقائق التالية:

- أن أعداء الامة العربية والقومية العربية الرئيسية اثنان: الاستعمار والصهيونية. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الكاتب يتحدث عن علاقة شاه ايران بالاستعمار الأميركي الصهيوني، علاقة وطيدة آذن الله بانصرافها إلى غير رجعة! ولا ينسى الكاتب عن أن يتحدث عن شوفينية الشاه وايثاره الكسروية على الاسلامية ربما لعلاقة الاسلام بالعروبة! أكثر من ذلك فإن شاه ايران يؤثر نجمة داود على الهلال!

وكما يتحدث عن الشاه فإن الكاتب يحدثنا عن هيلاسيلاسي أحد أعمدة الاستعمار والصهيونية في القارة الافريقية.. ومن شاء شاهداً - مؤيداً لما يذهب إليه الكاتب - عن هذا الهيلاسيلاسي الذي أطلق عليه لقب أسد يهوذا، فليقرأ ما تذكره عنه غولدا مائير في مذكراتها. وكيف تغدق عليه من الصفات والأخلاق والشهامة (الاسرائيلية) ما يستحقه! وعندما يسقط عن عرشه تتأسف عليه إلى درجة النعي!

على أن الواحة أو كل الواحات في «حكايات من الوطن العربي الكبير» هي رحلات الكاتب العربي إلى الجناح الغربي من الوطن العربي. وبالذات المغرب العربي والجزائر.. وهنا يحدثنا عن المغرب العربي « المزيان بالزاف!» حديث القلب للقلب.. - حديثاً يشاركه فيه أكثر من كاتب كويتي نذكر منهم الأستاذ سليمان الفهد - ويقف في رحلاته هذه وقفات ووقفات... يقف في المدن قديمها وحديثها: الرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس وطنجه... يقف فيها على الحدائق الغناء والجمال الأخاذ - يجب هنا أن نتذكر أن الكاتب شاعر قبل كل شيء - وينقلك الكاتب معه نقلة واسعة حيث تعيش تجربة جمالية حلوة.

وعندما يذهب الكاتب إلى الجزائر، بلد المليون شهيد، يكون ذهابه هذا بعد الاستقلال، وبعد أن سجل قصيدته التي حيا فيها الثورة الجزائرية في مطالعها، وأهدي فيها أرض الجزائر مليون قبلة! وقبل عقد من الزمن! ان من البيان لسحرا!

وما أرض الجزائر غير أرضي ... بقلب تفتدى مني ومقله
أقبل من ثراها كل شيء ... بكل جوارحي مليون قبله
وقد جهلت فرنسا أي جهل ... فليست ثورة الأحرار سهله

ولا نريد أن نترك موضوع الجزائر قبل أن نتحدث عن تنبيه الكاتب إلى قضية مهمة في غاية الأهمية، ألا وهي دراسة التجربة الجزائرية قد حلت المعادلة العربية الاسلامية الاجتماعية... والتي ما زلنا، نحن عرب المشرق، نتصارع حولها، حلها الأستاذ السقاف أفضل حل وأصلحه. فالعربية الاسلامية كما يمثلها زعماء الجزائر مثل بن بيلا وبومدين هي واحدة، فهم عرب أولاً ومسلمون أولاً فلا تفريق ولاخصام! وعلى البعد الاجتماعي فإن مقولة بومدين جامعة مانعة حاسمة: نحن مسلمون حتى الأعماق، اشتراكيون حتى الأعماق! أظن أن الكاتب بهذا وجد اطروحته الأساسية لمقولة عن القومية العربية، التي طالما تحدث عن بعدها الاسلامي الاجتماعي.. أقول لعله وجدها في التجربة الجزائرية فدعا إلى تعمقها واستقصائها.

كتاب آخر

وبعد فإن هذا الكتاب سيتلوه كتاب آخر، فهو الجزء الأول. والذي نرجوه من الكاتب أن لا يتذرع بالقول - وكما قال - : «ان الحكايات تحول دون التفاصيل». أجل! اننا نريد تفصيلاً وتحليلاً! ونريد من الكاتب فناً طويلاً.. نريد من الكاتب أن يحدثنا حديثاً موثقاً تاريخاً - ان صح القول - عن الاشخاص من القادة والرواد الذين يقابلهم. فيصبح لحديثه عنهم قيمة وثائقية.. ونريده أكثر أن يحدثنا- وهنا يمكن أن تكون الاضافة الحقيقية - عن تجربته النفسية والموضوعية، عن تجربة المخاض الذي يسبق الابداع الفني كما حدثنا - وأجاد - عن قصيدتي «العصفور الأصغر» و «الولد المشرد»... ولعل رجاءنا هذا للكاتب يستمد أهمية من أن قليلاً من شعرائنا من دون لنا تجربته الابداعية، وأعاشنا معه في معاناته، التي تلد لنا أدباً وشعراً اصطلح العرب على نسبته إلى وادي عبقر!

خاتمة القول أن هذا الكتاب من الكتب القليلة التي اخرجتها المطابع في الكويت صادر عن جهد عربي جدير بالتقدير والاعجاب.. يسد ثغرة في المكتبة العربية التي تفتقد حقاً وصدقاً إلى نفس درامي وفني يتجاوز فيه صاحبه أرضه إلى أرض العرب الواسعة فيحدثنا عن رموزها الفنية والسياسية والحضارية.. أجل! ان ما نعلمه عن وطننا العربي قليل وما نجهله أكثر! واننا نشكر للأستاذ السقاف أنه كان من الكتاب العرب القليلين الذين عاشوا تجربة وطنهم العربي الكبير وتحدثوا لنا عنه أعذب الحديث وأصدقه.

الكويت والمستقبل، التنمية والتعليم وجهاً لوجه*

ابتداء نود القول أن كتاب «الكويت والمستقبل، التنمية والتعليم وجهاً لوجه»، كتاب جديد في بابه. فالدراسات التي تعالج التنمية عن طريق التعليم، ومن ثم تجعل التنمية وسيلة للنهوض الحضاري، بما فيه التعليمي، دراسات قليلة، إن لم تكن نادرة. من هنا يكتسب هذا الكتاب أهمية، وتأتي اضافته إلى الأدب التربوي.

يربط الكتاب - ربطاً عضوياً ومفيداً، بين مستقبل الكويت والتعليم فيها. فلا تقدم ولا تنمية ولا عبور إلى عامل القرن الحادي والعشرين إلا بالتعليم، والمؤلف، بهذا، يضع يديه على أساس المشكلة وأصل الداء في واقعنا الكويتي بخاصة وواقعنا العربي بعامة. وهو لا يكتفي بهذا، وانما يحاول، وباخلاص، وضع مؤشرات، أو أنه يحاول أن يضع معالم أساسية لشروط العلاج، وتجاوز هذا الواقع الراهن إلى واقع أفضل.. تحكمه العقلانية ويسوده العلم وتختفي فيه معضلات التخلف على الجبهات المختلفة التربوية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

والمؤلف، يعتمد في دراسته على منهجية نيرة، تحسن تجميع المادة الأولية من مصادرها ومظانها، وهي ان لم تكن شاملة، إلا أنه يمكن القول انها كافية للغرض الذي أراده لها، ألا وهو الاحاطة بأبعاد القضية التي يعالجها، من أجل تيسير تناولها على القارئ العادي والمتخصص. ولعل هذا ما هدف إليه المؤلف: جعل قضايانا التربوية هماً عاماً للجميع، وليس للصفوة أو النخبة فقط، فالتربية والتنمية أمران يخصان الجميع، ولا بدّ من أجل حسم موضوعهما، إلى الأفضل، من الوصول به إلى أعرض قطاع ممكن من مجتمعنا.

وغني عن القول أيضاً أن الدكتور الابراهيم من خير من يتناول هذا الموضوع ويأتي فيه بالجديد المفيد: ذلك لأنه عانى التجربة التربوية والأكاديمية معاناة كبيرة: مدرساً في التعليم العام، وأستاذاً في التعليم الأكاديمي صعوداً إلى عمادة كلية التجارة فإدارة الجامعة فوزارة التربية، كل هذا جعل منه دارساً ومحللاً ذا رؤية أكثر صواباً ووضوحاً في تقويم

---

* تأليف د. حسن على الابراهيم.

التجربة التعليمية وسيطرة نزعة الماضوية، بمعنى الميل إلى تمجيد الماضي على حساب الحاضر ومشاكله المستعصية. وهو هنا يدعو إلى «العصرنة» لتلبي حاجات التغير العملي والتكنولوجي، والحضاري بوجه عام. على أن غياب الحرية والماضوية ليستا العاملين الوحيدين اللذين يقفان في طريق التطوير والتغيير، بل لعل هنالك مرضاً آخر أشد فتكاً وأكثر وبالاً، ألا وهو سيطرة البيروقراطية أو ما يسمه البيروباثولوجية أي مرض البيروقراطية.

ويرسم لنا الكاتب مؤشرات معينة للنهضة بالتعليم العالي، من بينها: التكافل بين الجامعات العربية ورفع مستوى البحث، فجامعة بلا بحث لا تستحق أن تسمى بجامعة. وهو هنا يدعو إلى رفع مستوى الرواتب واجزال العطاء للباحثين بما يستحقون، وانشاء المختبرات والخدمات المساندة من المكتبات ومراكز المعلومات، كما نلمح في قاموسه الأكاديمي هذه التعبيرات الهامة والحساسة: عدم النقل، عند انشاء الجامعات عن نموذج قائم، ومحاربة النمو السرطاني للمؤسسات الجامعية، واعلاء أهمية جامعة الصفوة، وتحكيم النظرة الاستثمارية التنموية في التعليم، من أجل تحقيق المردود الأفضل منه وله.

وأخيراً، فإنه ينبغي علينا، ونحن نختم تثميننا لدراسة الدكتور حسن الابراهيم، القول أنه إذا كان هنالك من خاصية أساسية لهذه الدراسة فهي أنها أثارت، من خلال المناقشة الموضوعية الرصينة، قضيتي التنمية والتعليم ووضعتهما كما جاء في عنوان الكتاب وجهاً لوجه، باعتبارهما جزئين لعملية واحدة، أو وجهين لنفس العملة، فهما تتداخلان وتتضافران ويؤثر كل منهما في الآخر سلباً وايجاباً. ولقد تمكن المؤلف من أن يضع هذا الموضوع الحساس تحت الضوء في هذه المرحلة الراهنة والحساسة، التي نمر بها في وطننا العربي الكبير. ولقد كان الكاتب طوال الوقت، ومن موقع الاخلاص في التقديم، يبحث عن الثغرات والسلبيات، ويجتهد في وضع العلاج لسد هذه الثغرات والقضاء على هذه السلبيات. فأمام اهمال المعلم.. يضع المؤلف العناية به، باعتباره محوراً أساسياً من محاور العملية، في المكانة الأدبية والمادية التي يستحقها، وإلا فلا تقدم ولا نهوض. وأمام غياب التخطيط في التنمية وما يسميه السكر النفطي، هناك دعوة للتخطيط والبرمجة على أساس من العلم والمعرفة. وأمام السلطوية والبطركية، هناك دعوة للديمقراطية ودورها في التنمية ومستقبل الكويت.

على أن المؤلف، لا يقف في دراسته الحيوية، التي بين أيدينا، عند تخوم الكويت، بل يتجاوزها إلى الواقع العربي، الذي ربما، كان يعاني من المشكلة نفسها، ولكن بصورة

أشد وقعاً. ومن هنا فإن هذه القضية يعديها الأكبر العربي، والأصغر المحلي، تأتي على رأس هموم المؤلف الذي يقول ن منهجيته في الدراسة عربية كويتية، بمعنى أنه يدخل في المشكلات التي يعالجها مدخلاً عربياً عاماً، ينتهي بالتخصيص في الكويت.

بقي أن نقول، ونحن بصدد تثمين هذه الدراسة، أنها دراسة لا ينقصها عنصر أساس من أجل العبور إلى نفس القارئ، مهما كان تحصيله ومقدرته، ألا وهو عنصر التشويق. هذا العامل الذي يكسب الدراسة سلاستها ويعطيها نكهة خاصة، ويجعل قارئها وهو يحظى بفائدة علمية، هي نتيجة البحث العلمي، ومعاناة التفكر والتفكير، يحظي كذلك بجانب من المتعة الثقافية مردها إلى اسلوب العرض ونسيج الكتابة وطريقة التوصيل. يدير الكاتب كتابه، ويبني دراسته على محاور معينة تتضافر، وتتكاتف جميعها، من البداية إلى النهاية،من أجل تعزيز أطروحته الأساسية حول التنمية والتعليم. وأول هذه المحاور هو المعلم، وبخاصة في التعليم الأولى الابتدائي، وهو هنا يتحدث ويضع النقاط على الحروف عن ظاهرة تراجع مكانة المعلم، وتدهور معنوياته، بحيث اصبحت مهنة المعلم العربي من أحط المهن، وأكثرها إزراء بصاحبها، هذا المعلم الذي هو ركن ركين في العملية التربوية. ولما كانت الأشياء تتميز بأضدادها، فإن الكاتب يضع صورة المعلم الياباني أمام صورة المعلم العربي، بحيث يبدو الفرق شاسعاً بما لا يقارن!! فبينما يحظى الأول بأفضل المرتبات والامتيازات، ويوضع في هذا مع مدراء الشركات والمؤسسات على مستو واحد، فإن الثاني لا ينال الكفاف، بحيث يضطر إلى أن يعمل عملاً اضافياً، نادلاً في مطعم أو سائقاً أو بائعاً، أو أي شيء آخر. وان أردت النتيجة الواقعة أو الحاصلة من اجراء هذا التعامل مع المعلم بين الطرفين الياباني والعربي، فانظر إلى حال كل منهما ومكانته على سلم الحضارة والتنمية والتطور. هذا المعلم الذي يشهد الكاتب، بنظرة حضارتنا وتراثنا إليه، من خلال رأي الفيلسوف الفارابي فيه، عندما يضعه على قمة الهرم الاجتماعي في مدينته الفاضلة.

ويقف المؤلف وقفة خاصة وطويلة عند التنمية باعتباها المفصل أو الركيزة الأساس لمجمل اطروحته والقضية التي يتناولها، وذلك لأن المنطلق لتغيير حياة المجتمعات والاجهاز على عنصر التخلف. وهنا يربط بين التنمية والاستقلال باعتبارهما صنوين، ومن ثم فإنه يطور مفهوم الاستثمار البشري باعتباره البديل المستقبلي للنفط. وهو يشير هنا إلى استثمارات دول معينة في مجالات خاصة أو محددة مثل استثمار بولندا في مجال الكومبيوتر، وتفوقها في ذلك، إلا أنه يأخذ على تجربة الكويت في التربية عدم تزويدها

بالقوى البشرية، فمختبرات وزارة التربية، في اللغة، لا تستخدم لغياب هذه القوى، والواجهة البحرية لا تتم المحافظة عليها بسبب تسيب، أو عدم انضباطية هذه القوى.

ويركز المؤلف على العلاقة بين التنمية وقطاع هام في المجتمع، ألا وهو قطاع المرأة والطفل فيجد أن ٨٠٪ من النساء العربيات مبعدات عن المساهمة في التنمية، كما أن الطفل وهو النواة الأولية للتنمية لا يحظى بالاهتمام الواجب. ويعدد الكاتب مظاهر الفشل في التنمية فيجدها شائعة في انتشار الأمية، والاختلال الواضح في العدالة الاجتماعية، وانتهاك حقوق الانسان.

ويقف المؤلف وقفة خاصة عند النفط، هذا الحاضر الغائب، فيجد أن له انعكاسات سلبية على المجتمع، وهو يأخذ هنا بنظرية كوزنتز، الذي يضرب مثلاً في التجربة البرازيلية، التي تراجعت في بعدها المالي والاقتصادي، لأنها لم تعتمد على التنمية الحضارية وانشاء المؤسسات، إلى أن ينتهي إلى القول أن تعديل المؤسسات أهم من الثروة.

وأما من حيث دور التعليم في التنمية، فإن المؤلف يعالج موضوع أهمية التعليم في تنمية الطاقة الابداعية للفرد، وهو يجعل من التعليم وسيلة للتأهيل والتعايش الصحي مع العصر التقني، وهو هنا يدعو إلى رفع مستوى النظام التعليمي ليفي بأغراض التنمية، ويسوق مثلاً على ذلك في أهمية تعميم تعليم استعمال الكومبيوتر، أو ما يطلق عليه محو أمية الكومبيوتر. وهو - كما هو الحال في مجمل اطروحته - يجعل النظام التعليمي هو الأخطر، في تحديد مصير الأمة ومكانتها ووجودها وكيانها بوجه عام، ويستشهد على ذلك بقول رئيس اللجنة التي شكلها وزير التربية الأمريكي، لدراسة وتقويم النظام التعليمي الأمريكي: أن الولايات المتحدة مهددة من نظامها التعليمي أكثر بكثير من تهديد الصواريخ الروسية. وهو يرفض أن يكون التعليم وسيلة للحصول على الشهادة، باعتبارها رمزاً للتقدم الاجتماعي. كما يأخذ على المخرجات التعليمية هذا المستوى المتدني من الخريجين.

وفي محور التعليم والنظام السياسي دعوة مخلصة لاعادة صياغة الخطاب السياسي، في الكتب الدراسية، من أجل خدمة أهداف الأمة في العدل الاجتماعي والديمقراطية والوحدة. وهو يركز على أن تسود الروح الديمقراطية المؤسسات التربوية. كما ينادي إلى تطبيق العقلانية العملية بدلاً عن حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات. وهو إلى هذا يدعو إلى

غرس روح المواطنة الصحيحة وتعزيز معنى الانتماء لدى تلاميذنا. كذلك ينادي بأن يكون للقومية العربية مكانتها التي تستحقها في فلسفتنا ومناهجنا التربوية.

وحول محور اصلاح التعليم في الكويت والمجتمع العربي فإن الكاتب يسلّط سيف نقده الصارم على ظواهر معينة في مجتمعنا العربي في كثير من أبعاده ومواقعه، تنعكس على العملية التربوية وتعطلها تعطيلاً: هناك فكر مغيب، يجعل الحاكم هو الذي يفكر لشعبه. كما أن هنالك سيطرة لظاهرة البطركية والروح التقليدية تهيمن على مقدرات الأمور في أركان مجتمعنا وتطبع التربية والممارسات بوجه عام بطابع المحافظة والتخلف. كما أنها تحول دون التطور والتغيير، وتجعلنا نرواح مكاننا بينما تُغذ الأمم الأخرى السير نحو التقدم.

ولا ينسى الكاتب في هذا الباب أن يضع بعض الأبعاد التاريخية، وبالنسبة لاصلاح العملية التربوية، في المنظور، وهنا يعلي من دور المعلم الفلسطيني والمصري في نهضة الكويت التعليمية، ويستشهد بقول الأستاذ خالد العدساني عن دور البعثة التعلمية الأولى الفلسطينية: «فبعثوها (الدراسة والتعليم) إلى حياة الشباب والنشاط بما نفخوه في صدور ناشئتها من قوة وبثوا في صفوفها من نظام (هؤلاء)المدرسين الفلسطينيين الذين برهنوا على دماثة أخلاقهم وحسن سلوكهم ومتانة مبادئهم فضلاً عما يبذلونه من جهد كبير للاصلاح الشامل الصحيح..».

وفي محور اصلاح التعليم يلجأ الباحث إلى ايراد احصائيات معينة، وهي بما لا شك فيه تدق ناقوس الخطر للقائمين على شؤون التربية ومعها الشؤون العامة ليستيقظوا على حقيقتها، ويتداركوها قبل فوات الأوان، ومنها أن ٠,٠١٦٪ من الأطفال في وطننا العربي يتاح لهم فقط التعليم بالروضات، كما أن هنالك ثمانية ملايين طفل عربي بلا مدارس!.

وفي المحور السادس والأخير، وعند حديثه عن التعليم العالي، يستشهد الدكتور الابراهيم بقول الدكتور انطوان زحلان عن أن المشكلة في تعليمنا العالي هي أنه عاجز عن الابداع، هذا الابداع الذي به يقاس التقدم والتطور، وليس بعدد العلماء. كما أنه يشكو من عدة أمراض تسيطر على الباحث العربي تمنعه من الوصول ببحثه إلى الحدود أو النهايات التي ينبغي الوصول به إليها، ومنها غياب الحرية.

وأما البيروقراطية هناك الحاح على أهمية إتاحة المجال للمبادرة والمبادهة والابتكار..

وأمام الكم وتقديس الشهادة، كطقس من الطقوس وسبيل للوجاهة الاجتماعية، هناك دعوى إلى الكيف، وعدم اعتبار الشهادة إلا وسيلة للبحث العلمي وأداة من أدوات التقدم والعبور إلى التعليم الذاتي والبحث المستمرين، وصولاً بالتجربة العلمية إلى غاية الغايات فيها.. وأمام ترك الأمور على عواهنها هناك دعوة إلى المحاسبة والتقويم، ووضع النقاط على الحروف على جوانب الاهمال والتسيب.

وبعد، فإن كتاب الدكتور الابراهيم، ربما، يكون في نظرنا من أفضل الكتب التي ظهرت في السنوات الأخيرة في موضوعه، لا لشيء إلا لأن كاتبه، وضع خبرته، وبمصداقية تستحق التقدير وبمنهجية سديدة أمام القارئ العربي ليرى في أمر نفسه ووطنه وأمته ما ينبغي عليه أن يراه.